الأفكار السياسية للقديس أوغسطين

عن

مدينة الله

تأليف

نورمان بينز

ترجمة وتعليق

دكتور

اسامه زكى زيد

كلية التربية — جامعة طنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

يحتوى هذا البحث على مقالة قمنا بنقلها إلى العربية وعنوانها «الأفكار السياسية للقديس أوغسطين عن مدينة الله» تأليف نورمان بينز . وهي منشورة فى السلسلة العامة لمطبوعات الجمعية التاريخية الانجليزية بلندن عام ١٩٦٢ .

والمؤلف نورمان بينز غنى عن التعريف . فهو من كبار المؤرخين الغربيين المحدثين المهتمين بالتاريخ الوسيط وحضاراته ، وخلف لنا كثير من الكتب والبحوث (١) .

وقد مهدنا لترجمتنا الحديثة بدراسة تحليلية تكون بمثابة خلفية تاريخية تساعد القارىء على فهم الموضوع من كافة جوانبه .. ورأينا تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام : الأول ويتناول الأثر الذى تركه الديانه المسيحية فى نفوس الناس ، وما ترتب على ذلك من ظهور سلطتين كبيرتين هما البابوية والامبراطورية . والثانى يتضمن نبذة عن حياة القديس أوغسطين وأحوال العالم الرومانى فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد عندما سقطت روما عام ٤١٠ م فى ايدى القوط الغربيين إذ كان هذا الحدث سبباً لتأليف كتاب مدينة الله .

---

(١) من أهم مؤلفاته :

The By Zantine Empire (London, 1939); By zantine studies and other Essays (London, 1960); Constantine the great and the christian church (London, 1929).

أما القسم الثالث والأخير فقد خصصناه لابراز أهم الجوانب التى تناولها القديس أوغسطين فى مؤلفه ، والتى كانت خير معين للبابوية فيما بعد حينما احتدم الصراع بينها وبين الامبراطورية حول المسائل العلمانية .

وقد اقتضى نقل هذا البحث إلى العربية تزويده بكثير من المعلومات والبيانات التى لم يتضمنها الأصل الانجليزى ، وبخاصة بعض التعليقات فى الحواشى على عدد من النقاط التى قد تكون معروفة للقارىء الغربى .. ولكنها فى حاجة إلى المزيد من الايضاح بالنسبة للقارىء العربى. وللتمييز بينها وبين حواشى المؤلف الأصلية فقد اضفنا كلمة المترجم بين قوسين أمام كل حاشية منها وقد ذيلنا البحث بقائمة باسماء المراجع العربية والمعربة والأجنبية التى اعتمدنا عليها فى الدراسة التحليلية وفى التعليقات فى الهوامش الأصلية .

والله ولى التوفيق ،،،

«اسامة زكى زيد»

شهد القرن الرابع الميلادى بعض التطورات الخطيرة التى كان لها أثرها فى تغيير وجه التاريخ الأوروبى القديم ، وان ظلت معالم هذا التاريخ باقية فى أوروبا إلى ما بعد القرن الرابع بكثير .. ولعل من أبرز هذه التطورات اعتراف الامبراطورية الرومانية عام ٣١٣ م بالديانة المسيحية كدين رسمى لها ونقل عاصمة الامبراطورية من روما إلى القسطنطينية سنة ٣٣٠ م ، ثم الخطر الجرمانى على حدود الدولة ، إلى جانب الأزمات العديدة التى انهكتها فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. وقد ترتب على ذلك تقسيم الامبراطورية إلى قسمين عام ٣٩٥ : احدهما شرقى وعاصمته القسطنطينية والآخر غربى وعاصمته روما . وعلى ذلك يمكن القول بأن القرن الرابع يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التى كيفت تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، وهى الكنيسة والجرمان والامبراطورية .

ولكن ترتب على الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً للامبراطورية الرومانية نتائج بعيدة المدى فى شتى مجالات الحياة . فمثلا أدى مع مرور الزمن إلى ازدياد سلطة الكنيسة ونفوذها السياسى وتطور اللاهوت المسيحى وتقدمه كما أدى انتشار الديانة الجديدة بين طبقة المثقفين الذين الفوا التفكير الكلاسيكى وتمرسوا على طرق الجدل وأساليب المنطق والفلسفة ، إلى تطور جديد فى الدراسات اللاهوتية . فأخذ هؤلاء المثقفون يتساءلون عن كثير من تفاصيل العقيدة المسيحية مثل العلاقة بين الله والمسيح ، وطبيعة الملائكة ، والمقصود بالخير والشر ، مما استلزم ارساء علم اللاهوت على أسس راسخة حتى يقتنع المثقفون من معتنقى المسيحية بالمعضلات والمشكلات اللاهوتية العويصة التى كانت تواجههم . وقد قام بهذه المهمة عدد من كبار مفكرى المسيحية وأهمهم القديس جيروم (٣٣١ — ٤٢٠) وكذلك القديس امبرواز (٣٤٠ — ٣٩٧) ، والقديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠م) . وكان هؤلاء الآباء على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية ولاسيما اراء الافلاطونية الحديثة، فافادوا منها

فى تبرير آرائهم والتدليل عليها ، وتقديم والعقائد المسيحية فى صورة علمية يتقبلها المثقفون (١) . كذلك أثرت الديانة المسيحية تأثيراً كبيراً فى الاتجاهات السياسية التى سادت الامبراطورية الرومانية بالرغم انها منذ البداية قد حصرت نطاق اهتمامها فى المسائل الدينية فحسب ، دون النظر إلى أى من الأنظمة أو الأفكار السياسية (٢) . فبعد أن تطورت وانتعشت السلطة الكنسية وقفت فى وجه السلطة العلمانية . ممثلة فى شخص الامبراطور وبخاصة عندما حاول التدخل فى شئونها وتعاليمها . فوجد المسيحيون أنفسهم أمام طريقين : أما أن يطيعوا الله ، وأما أن يطيعوا الحاكم ، وكانوا يفضلون الطريق الأول فى وقت كانت فيه الروح تفوق الجسد .. ومن ثم نشأت فى المجتمع الغربى الوسيط سلطتان : الأولى دينوية ويرأسها الامبراطور ، والأخرى دينية ويرأسها البابا على أن تكون ادارة كل منهما طبقاً للقانون السماوى والقانون الطبيعى (٣) . كما ذاعت العبارة الواردة فى انجيل متى «اعطى ما لقيصر لقيصر ومالله لله » .. وبذلك كان المسيحى خاضعاً لنوع من الالتزام الثنائى بين الله وبين الحاكم . وكان من تأثير المسيحية أيضاً ، أن ظهر مذهب الغايتين غاية دينوية متصلة بالدولة وغاية أبدية متصلة بالكنيسة (٤) ..وترتب على هذا ان ظفرت الكنيسة بالسلطان والثراء بفضل ما لها من عقيدة واخفق الحكام العلمانيون نتيجة لاعتقاد الكثرة الغالبة من الناس — بما فى ذلك معظم هؤلاء العلمانيين أنفسهم — اعتقاداً جازماً بصدق الديانة المسيحية . ولكن ما كان أحد ليتصور ان أيا من السلطتين تمارس سلطة استبدادية . فكان الجميع

---

(١) Duchesne, Histoire Ahcienne D'Eglise , III, P. 18; Painter, A History of the Middle Ages, P. 15.

(٢) جورج سباين : تطور الفكر السياسى ، ترجمة د . حسن جلال العروسى ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٣) على عبد المعطى : الفكر السياسى الغربى ص ١٣٣ — ١٣٤ ؛ جورج سباين : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

(٤) Barker, principles of social and political Theory, P. 7.

يعتقدون ان السلطتين انما تخضعان للقانون ، وتملاء كل منهما مكاناً هاماً فى الحكومة التى قضى الله أن يحكم بها الانسان والطبيعة . ويرى الفيلسوف جورج سباين انه على الرغم من ذلك ، فلم تكن هناك جماعة من الناس تتكون منهم الدولة ولا جماعة أخرى تتألف منهم الكنيسة ، لأن الناس جميعاً كانوا ينضمون إلى كل منهما . فلقد كان هناك مجتمع مسيحى واحد هو ذلك الذى نوه عنه القديس أوغسطين فى كتابه «مدينة الله» قضى الله أن يكون له رئيسان ، البابا والامبراطور ، ومصدران للسلطات حكم روحى يقوم به رجال الكهنوت وحكم زمنى يقوم به الملوك . (١) .

وجدير بالذكر ان المسيحيين الأوائل قد ميزوا بين المملكة الروحية التى نادى بها ، المسيح وبين الممالك والدول الأخرى . وكانت هذه التفرقة هى محور كتابات الحواريين الذين نادوا بضرورة طاعة الحكومات وأوضحوا ان الحكومة هى وسيلة تنفيذ ارادة الله فى الأرض . وقد سمح الحواريون بعدم طاعة الحكومة فى حالة تدخل الدولة فى شئون الكنيسة وتعاليمها ، لأنه فى هذه الحالة تعرقل الدولة انتهاج تعاليم الله . ولما كانت طاعة الله هى الأفضل فان عدم طاعة الحاكم فى مثل هذه الحالة واجبة (٢) .

ومن خلال تلك التطورات نشأت الآراء والأفكار السياسية فى العصور الوسطى حول العلاقة بين السلطتين الروحية والزمنية . وتبعاً لقوة الخلاف بين هاتين السلطتين ، أى بين البابا والامبراطور أو بين الكنيسة والدولة ، تفاوتت شدة هذه الأفكار وقوتها . ولذا فقد انقسم الفكر السياسى فى هذه الفترة الزمنية إلى اتجاهين : الأول يدافع عن السلطة الدينية ويؤكد حقها الاكى فى مراقبة أعمال الدولة والسلطة الزمنية . والثانى يدافع عن السلطة الزمنية معتمداً على أن الدولة ذات الأصل المقدس يجب أن يكون حاكمها

---

(١) ج سباين : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ .

وكيلا عن الله فى الأرض ، ومسئولا أمامه وحده . (١)

وقد عبر عن هذه المفاهيم خير تعبير كتاب القديس أوغسطين «مدينة الله» . وبالرغم ان هذا الكتاب كان كلاسيكياً بالنسبة للنظرية السياسية التى سادت القرون الوسطى المبكرة بصفة عامة . فقد احتفظ بالكثير من نفوذه حتى النهاية (٢) .

وقبل استعراض أهم الآراء التى تضمنها الكتاب يحسن القاء نظرة سريعة على مؤلفه والظروف التى احاطت به وانعكاس ذلك على الأفكار التى نادى بها .

يعتبر القديس أوغسطين من الشخصيات الهامة والبارزة فى تاريخ الكنيسة الغربية ، واستمرت أعماله تؤثر بشكل واضح فى الفكر المسيحى الغربى منذ فجر المسيحية وحتى اليوم (٣) .

وتأثرت كثير من الكتابات والمؤلفات اللاهوتية والفلسفية الحديثة بأسلوبه وطريقته (٤) وهو على حد قول برتراند راسل ، يعد ضمن أحد أربعة رجال يطلق عليهم اساتذة الكنيسة الغربية . (٥)

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٢) كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة د . جوزيف نسيم يوسف ص ٢١٧ .

(٣) Jackson, History of theChristian church, P. 490; stephenson, Medie' val Historyê P. 98.

(٤) Hardwick, A History of the christian church in the Middle Ages, P. 168.

(٥) المقصود بهم جيروم (٣٣٠ – ٤٢٠ م) والقديس امبرواز (٣٤٠ – ٣٩٧ م) والبابا جريجورى الكبير (٥٩٠ – ٦٠٤ م) انظر :

Russel, History of Western philosophy, P. 335.

ولد فى ١٣ نوفمبر من عام ٣٥٤ م فى طاجست (Tagaste) من أعمال نوميديا (١) من أب وثنى يدعى باتريكوس (Patricus) وأم مسيحية اسمها مونيكا (Monica) . (٢). وعندما بلغ السادسة من عمره أرسل إلى قرطاج ليتم دراسته الأولى واستمر بها حتى بلغ الثانية عشرة فأرسل إلى مدرسة قواعد اللغة فى مادورا Madaura ، وهى مستعمرة صغيرة تقع على بعد ٣٠ ميل من طاجست تضم نخبة من الرومان المحنكين (٣) وكان أوغسطين قد أخذ عن أمه منذ الصغر حب المسيح ، كما تشبع من خلالها بالثقافة الدينية (٤) وعندما شب ابتعد عن الكنيسة ، وحاول أن يعد نفسه ليتبع مهنة أبيه فى دراسة القانون . فعكف على دراسة قواعد اللغة اللاتينية وعلم البيان ، واجادهما اجادة تامة . أما بالنسبة للغة اليونانية ، فقد أسف أوغسطين كثير لعدم اجادته لها لقلة استخدامها فى ذلك الوقت فى المدارس الافريقية (٥) . فضلا عن أنه كان يساق سوقاً عنيفاً فى دراسته لها . ويتوعدونه الوعيد القاسى والعقاب الأليم إذا ما تباطىء فى اتقانها (٦) . لذلك لم يعرف منها الا القليل وبعد أن نال قدراً فر وا من الدراسة فى المحالات السابقة اتجه إلى قرطاج ليكمل تدريباته القانونية بها . وقضى بها ما يقرب من ست سنوات (٣٧٦– ٣٨٢ م) .. وهناك أظهر اهتمامه بدراسة الادب (٧)

وفى عام ٣٨٣ م قرر السفر من قرطاج إلى روما ، لأنه علم أن الفصول

---

(١) تبعد الآن حوالى مائة كيلو متر من مدينة عنابة بالجزائر .

(٢) Donald attwater, Saints, P. 55; Russel; op. cit., P. 344, chadwic, TheEarly church, P. 216.

(٣) Ibid.

(٤) حسن حنفى حسين : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، ص ٣ .

(٥) Stephenson, op. cit., P. 98

(٦) Russel, op. cit., P. 346.

(٧) Stephenson, op. cit., loc. cit

الدراسة هناك أكثر نظاماً ، كما كانت الفوضى التى يحدثها الطلاب فى قرطاج أكثر منها فى روما مما يجعل التعليم شبه مستحيل . وبعد أن قضى عاماً فى روما أرسله العمده سيماخوس إلى ميلان استجابة لرجاء تقدمت اليه به تلك المدينة تطلب معلما لعلم البيان . وهناك فى ميلان عرف القديس امبرواز(١) وتوطدت علاقتهما . وفى عام ٣٨٥ م لحقت به أمه مونيكا فى ميلان ، وكان لها الفضل فى التعجيل بخطاه نحو اعتناق المسيحية عام ٣٨٦ م .. وفى ٢٤ ابريل عام ٣٨٧ تم تعميده على يد القديس امبرواز وفرحت أمه لذلك .. ولكنها لم تلبث أن لقيت حتفها . ومكث أوغسطين بعد ذلك بضعة شهور فى روما عاد بعدها إلى مسقط رأسه حيث أقام بها حتى ختام حياته ، منصرفاً إلى حياة الرهبنة وإلى كتاباته التى كان مكثاراً فيها (٢) وفى عام ٣٩١ م عندما زار مدينة هيبو (Hidpo) عرض عليه اسقفها فاليريوس (Valerius) تعيينه قسيساً بها ، فوافق بعد الحاحه عليه .. وفى عام ٣٩٦ م أصبح مساعداً للأسقف فاليريوس . وفى نفس العام تولى منصب الأسقف خلفاً لفاليريوس وامتد تأثير أوغسطين بعيداً فيما وراء مقاطعته ، وأصبح أبرع قديس فى عصره حتى موته عام ٤٣٠ م (٣) .

ان معلوماتنا عن فترة شبابه أكثر مما نعلمه عن معظم رجال الكنيسة

---

(١) كان اسقفاً لمدينة ميلان فى عهد الامبراطور فالنتيان الثانى (٣٧٤ – ٣٩٧ م) وتميز بآرائه الفقرية فى استغلال الكنيسة فى المسائل الروحية ويقال انه وقف معارضاً فى وجه الامبراطور عندما أمر بموجب تأثير أمه الامبراطورة أوجستينا الاريوسية بالتنازل عن كنيستين فى ميلان لاتباع المذهب الاريوسى هناك . وكانت المرطقة الاريوسية قد انتشرت فى شمال أوروبا ولا سيما بين القبائل المتبربرة .. أنظر : كولتون : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٧ ، ج . سابين المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٢) Augustine, Confessions, translated by R. S. pinecoffin, PP 91. 111. Cf. also : Russel, Op.cit. PP. 346-348, Jaekson, cP.cit. PP 493 - 496.

(٣) Confessions, P. 20; cf. also : Jackson, op. cit., P. 496; Stephenson, op. cit., P 99.

راجع كذلك يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصور الوسطى ص ١٨ .

فى بواكير حياتهم لأنه انبأنا بها فى كتابه (الاعترافات) (Contessions) الذى يعتبر صورة واقعية ووثيقة هامة عن سيرته منذ طفولته حتى اعتناقه المسيحية فى الثامنة والثلاثين من عمره ، أى فى الفترة الواقعة بين عامى ٣٥٤ و ٣٨٧م . وهذا الكتاب الفه عام ٤٠٠ ، وهو مشهور فى الآداب العالمية لسمو أسلوبه وقدرة تأثيره ودقة التحليل النفسانى ، وعمق النظرات الفلسفية . إذ يوضح فيه كيف ان الوثنى وجد خلاص نفسه فى تعاليم المسيح (١) . ويلمس من هذا الكتاب ، أيضاً ان أوغسطين قد عاش طوال هذه المدة الزمنية حياة الخطيئة وتلوث شبابه بالرذائل غير أنه منذ أن اعتنق المسيحية إلى أن وافته المنية كان يتسم بأخلاق وعبادات نقية بسيطة ، خالية من الترف والمظاهر . فكان من أبرز فضائله حماسته المتقدة ضد الهراطقة أيا كان لونهم ، فشن عليهم حرباً شعواء لا هوادة فيها (٢)

وجدير بالذكر ، انه عندما كان غارقاً فى اللهو فى قرطاج عام ٣٧٣ م قرأ كتاباً لشيشرون (٣) اسمه هورتنسيوس (Hortesius) وكان كاتبه يمزج فيه الفلسفة ببلاغته المعهودة ، فيصورها علم وفضيلة ووسيلة للحياة السعيدة . واندفع أوغسطين فى طلب الحقيقة ، حقيقة مصير الانسان

---

(١) Contessions' P' 111. cf.a120 :Jacnson, op. cif. P. 420, Lamonte, The world ofthe Middle Ages. P. 78.

راجع كذلك يوسف كرم : المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٢) Gibbon, The Decline and fall of the Roman Empire, P. 558; La Monte, op. cit. Loc. cit.

(٣) ولد عام ١٠٦ق.م وقتله مارك انطون فى عام ٤٣ق.م. وتشمل مؤلفاته ثمانية عشر مجلدا نشرت عام ١٨٢٣ فى طبعة صغيرة القيب . وفيها ثلاثة مجلدات تحتوى على مقالات فى البلاغة وستة مجلدات تتضمن الخطب التى كتبت لالقائها فى السناتو أو المحاكم ، وأربع رسائل ، وأربعة مؤلفات فلسفية ، ومجلد من المقتطفات . لمزيد من المعلومات راجع د . ه . بارو : الرومان ترجمة د . عبد الرازق يسرى ص ٦٦ .

فقرأ الكتاب المقدس ، ولكن لم يجد إلى نفسه سبيلا لأن أوغسطين كان متشبعاً بالأدب ، اللاتينى . ولذلك لم تعجبه لاتينية الكتاب المقدس . وكان متعلقاً بالدنيا ومتاعها فلم تهزه مبادئه . فظن انه وجد ضالته فى المانويه (Manichaeis) فانضم اليها (١) ولعل هذه الخطوة ناتجة أيضاً ، عن كثرة فضوله ، واقتناعه التام بحرية الفرد فى اعتناق الدين الذى يتقبله عقله ، لأنه فى الوقت الذى وجد فيه الغموض فى كل من العهد القديم والانجيل ، وجد فى التعاليم المانوية معلومات كاملة وافرة ، وردا جامعاً على كل ما يجول فى ذهنه ، خاصة وان الدعوة المانوية كانت تتمتع فى القرن الرابع الميلادى بمكانة كبيرة (٢) . واستمر أوغسطين معتنقاً للمانوية تسع سنوات . ولكنه كان يتحول عنها تدريجياً . لأن الشك بدأ يساوره فى عقائدها وفى أسسها العقلية التى لم تكن كافية لاقناعه بصحة المذهب . وجاءت قراءاته للافلاطونية

---

(١) يوسف كرم : المرجع السابق ص ١٥ ، حسن حنفى حسين : المرجع السابق ، ص ٩ عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ص ١٧ .

والمانوية مذهب شديد التمسك بمبدأ الثنائية القائل بوجود الهين فى الكون احدهما للخير وآخر للشر ، الأول يحكم العالم الروحى والثانى يحكم العالم المادى . وبعبارة أخرى فان هذا المذهب قام على أساس الثنائية المطلقة . فهناك روح ومادة ، ونور وظلام وخير وشر .. وهذا المذهب يجمع بين عناصر مسيحية وعناصر زارادشتية فارسية تنادى بأن الشر شيء ايجابي متجسد فى المادة بينما يتجسد فى الروح . ولعل هذه الديانة الفارسية موحاه من فكرة ان هناك قوتين تسيطران على العالم هما مبدأ الخير والشر ، وان الكائن الذى يمثل فيه الخير هو الاله «اهورامازدا» وان روح الشر تتجسد فى الاله «اهرمان» وكان الصراع بين القوتين ينتهى بانتصار الخير . والمانويون يدعون انهم أصحاب مذهب عقلى محض لتفسير العالم وتبرير وجود الشر ، والوصول إلى الايمان عن طريق العقل المحض لمزيد من التفصيلات انظر :

Russel, op.cit. pp. 325 — 326; Cam. Med. Hist, VI pp. 701. — 702; Chadwick, The early church, p. 169.

وكذلك سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٦٧ ، حسن حنفى : المرجع السابق ص ٩ ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٦ ، ص ٤٣٩ — ٤٤١ .

(٢) Stephenson, op. cit., P. 98.

الحديثة (١) خير منقذ له من ضلال المانوية . فقرر نهائياً تركها ، خاصة بعد أن استمع فى روما عام ٣٨٣ م إلى وعظ أسقفها القديس امبرواز (Ambroise) ، معتمداً على التفسير الروحى للكتب المقدسة . فتفتح قلبه له ، الا أنه ظل مغلقاً عن المسيحية وعقائدها ، إلى أن أقر بعض رسائل القديس بولس التى تبين أن الانسان فريسة للخطيئة ، وانه لا يمكن الخلاص منها الا بفضل المسيح . فاكتشف أوغسطين عندئذ ما كان يبحث عنه ، فتقبل المسيحية فى سبتمبر ٣٨٦ م وتم تعميده على يد أستاذه القديس امبرواز حسبما أسلفنا . (٢)

ويعتبر تحول أوغسطين إلى المسيحية من الأحداث الهامة فى تاريخ

---

(١) على الرغم من الاعجاب الكبير الذى شعر به أوغسطين بفلسفة افلاطون ، فلم يكن بمقدوره ان يصبح واحداً من الافلاطونيين . إذ كانت معرفته بالفلسفة الافلاطونية شحيحة لأنه لم يقرأ محاورات افلاطون فى لغتها الأصلية باليونانية لعدم اتقانه التام لها ، بل قرأ باللغة اللاتينية . فرأى المذهب الافلاطونى فى صورة شبيهة بالانعكاس فحسب ، أى أكا هو متضمن فى كتاب شيشرون والكتاب الافلاطونيين الجدد . لمزيد من التفصيلات انظر : أرنست كاسيرر ، الدولة والاسطورة ، ترجمة د . أحمد حمدى محمود ص ١١٤ وما بعدها .

(٢) حسين حنش : المرجع السابق ص ٩ ، عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ص ١٨ انظر أيضاً :

Stephenson, op. cit., P. 99; Jackson, op. cit., p 492; Chadwick, op. cit., p. 218.

ويرى يوسف كرم فى كتابه تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط ، ص ١٦ — ١٧ ، ان الافلاطونية لم تكن سبباً فى تحول اوغسطين إلى المسيحية لأنه كان قد آمن بها من قبل عندما وجد أن فى الكنيسة علامات بارزة تدل على أنها من عند الله . ففيها تتحقق نبوءات العهد القديم . ويتمثل فيها الكمال الروحى وتصنع المعجزات وهى قد انتشرت بالرغم مما لقيت من عنت هائل . أما بالنسبة لقراءة رسائل افلاطون فقد افادته فى حل مشكلات عقلية كانت تحول بينه وبين فهم المسيحية كما يجب أن تفهم . ويؤيد ذلك انه توهم عند قراءته الأولى انه وجد فيها العقائد المسيحية الكبرى ، وهى غير موجودة بلا شك وانه انما فرح بالفلسفة الافلاطونية لهذا السبب مما يدل على أنه كان مسيحياً بالقلب قبل أن يطلع عليها وانه قرأها بهذا الاستعداد .

المسيحية لأنها اكتسبت رجلا نال اعجاب الجميع من ناحية شخصيته وعلمه وفلسفته وذكائه .

وكان العصر الذى يعيش فيه أوغسطين يتسم بالفوضى والاضطراب ؛ إذ أصبح المجتمع فى الامبراطورية الرومانية جامداً لا حياة فيه .. وكان المواطن الرومانى قد تخلى عن الكثير من حرياته السياسية ، قانعاً بأن يعهد بأمر الدفاع عن الامبروطورية إلى المؤتزقة من البرابرة . وفى غمرة هذا الاستتار والانحلال كان هناك شىء واحداً لم ينل بقوة وثبات الا هو الدين الجديد (١) .

ولكن أدى الاعتماد على الجرمان البرابرة إلى تغلغلهم فى أجهزة الدولة الرومانية حتى وصلوا إلى أعلى المناصب بها ، وأصبحوا قوة لا يستهان بها ومصدر خطر دائم . هذا فى الوقت الذى عاث فيه هؤلاء البرابرة فساداً على الحدود الشمالية للامبراطورية وكثرت اغاراتهم على تلك الحدود ، واخذوا يتهالون بجحافلهم فى جوف الامبراطورية لينقضوا عليها مستغلين حالة الضعف والفوضى الشديدة التى عليها الامبراطورية . وجاءت الضربة القاصمة ضد الامبراطورية من القوط الغربيين الذين تمكنوا بفضل زعيمهم الاريك (Alaric) من الاتجاه غرباً إلى ايطاليا واستولوا على روما عام ٤١٠ م (٢)

وجدير بالذكر ، ان البرابرة الجرمان عندما اجتاحوا الدولة الرومانية اكتسحوا أمامهم كل شىء فيما عدا الكنيسة ورجالها . فقد أبقوا على القس فى كنيسته والراهب فى ديره (٣) . وضمنوا الامان لكثير من الوثنيين الفارين إلى الكنائس واتخاذها ملاذاً لهم (٤) . ولعل هذا مرجعه إلى خوفهم

---

(١) كولتون : المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٢) History of the Later Roman Empire, I, P 180, Jackson Bury, op. cit., PP. 511 — 512.

(٣) Jackson, op. cit., P 513.

(٤) Russel, op. cit., P 353.

الشديد من أن يصعب عليهم رجال الدين المسيحى لعنهم فتحل بهم الكوارث. هذا بجانب كونهم مسيحيين . وهكذا أصبحت تلك الكنيسة اللاتينية هى كل ما تبقّى من الامبراطورية القديمة بعد زوالها .

على أية حال ، بسقوط روما تملك الناس حالة من الفزع والذهول العميقين ؛ لأن الاعتقاد العام كان ان روما لا تقهر .. فأصبحت الفرصة سانحة لكثير من الوثنيين فى توجيه أصابع الاتهام إلى المسيحية باعتبارها المسئولة عما أصاب روما من جراء هذه الكارثة المروعة وان الالهة غضبوا على المدينة الكبيرة وتخلوا عن نصرتها لتهاونها فى اتمام شعائرها الدينية وتشجيعها على انتشار المسيحية فى ارجاء الامبراطورية (١) . ولكن جاء كتاب «مدينة الله» للقديس أوغسطين خير نصير للمسيحية ، ورداً شاملا على هؤلاء الوثنيين .

ويعتبر هذا الكتاب من أكبر الأعمال الأدبية والفلسفية تأثيراً فى الفكر المسيحى الغربى وقد استغرق انجازه ثلاث عشرة سنة ، بدأه سنة ٤١٣ وفرغ منه سنة ٤٢٦ م . (٢) ويتكون الكتاب من اثنين وعشرين مقالة ، خصص المقالات العشر الأولى منها لنقد الوثنية ومعتقداتها وأخلاقها ومذاهبها الفلسفية ، موضحاً ان المسيحية لم تكن مسئولة على الاطلاق فيما أصاب روما من محن وأزمات ، وانما هذا مرجعه انتشار الوثنية فى ذلك الوقت ، وان هذه الالهة الوثنية التى لا اخلاق لها ، وتلك الخرافات العالقة بطقوسها الدينية

---

(١) Jackson, op. cit; P 512; Hoyet & Chodorow, Europe in the Middle Ages, P. 53; CAM. Med Hist., I, P 115; Russel, op. cit., P 353; Chadwick, op cit., P 225.

ومن المراجع العربية أنظر يوسف كرم : المرجع السابق ، ص ١٩ ، عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٢) Donald Attwater, op. cit., P 56; Hoyet,op. cit.,Loc. cit. Cam. Med. Hist., I, P. 576.

راجع أيضاً عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، ص ١٨ .

قد شجعت على انحلال الأخلاق ، ومن ثم جلبت على الناس نقمة الله. (١) واستطرد قائلا ان المجد التى تمتعت بها روما انما كان بسبب مناصرة الله للرومان والمسيحيين المخلصين فى ايمانهم والذين نبذوا فكرة تعدد الالهه وضلال الوثنية (٢) . وقد اعتمد أوغسطين على كثير مما جاء فى التوراه والانجليل كمصدر للدفاع عن المسيحية ضد الوثنية فى الأيام الأخيرة من الامبراطورية الرومانية (٣) أما بالنسبة للاثنتى عشرة مقالة التالية ، فيوضح فيها أوجه الخلاف بين مدينة الانسان ومدينة الله . فهو يرى ان الأولى مبنية على حب الذات إلى حد امتهان الله ، والأخرى مبنية على حب الله إلى حد امتهان الذات (٤) فهناك مدينتان ترجع اليهما سائر المجتمعات البشرية : المدينة الأرضية أو مدينة الشيطان وهى من صنع الانسان وتفتقد الكمال فضلا عن تأصل الشر فيها (٥) .

والمدينة السماوية أو «مدينة الله» وبينهما منذ البداية حرب هائلة تجاهد الأولى أى مدينة الانسان على نصرة الظلم وتأييد الطغيان وتعبيد الاثام ، وتجاهد الثانية فى سبيل العدالة وتحقيق الفضيلة وتأكيد الايمان . ويرى أوغسطين ان هذه الحرب سوف تظل قائمة بين المدينتين حتى نهاية العالم ، حيث يقوم المسيح بالفصل بينهما فى آخر الزمان فتلقى الأولى جزاؤها فى النار ، بينما تنعم الثانية بالسعادة الأبدية (٦) .

ويعتبر أوغسطين ان أصل هاتين المدينتين يرجع إلى ما قبل خلق الانسان

---

(١) كولتون : المرجع السابق ، ص ٢١٨ ، يوسف كرم : المرجع السابق ص ١٩ .

(٢) CaM. Med. H ist., I; P. 576.

(٣) Maurice Keen, The Pelican History of Medi'eval Europe, P 19.

(٤) CaM. Med. H ist., I; P. 576.

(٥) Thompson, History of the Middle Ages, P. 177.

(٦) يوسف كرم : المرجع السابق ، ص ٤٥ ، على عبد المعطى : الفكر السياسى الغربى ص ١٤١ .

فمدينة الله وجدت بخلق الملائكة ، ثم انتقلت أول الأمر فى الأمة العبرية ثم تجسدت فى الكنيسة بينما المدينة الأرضية ظهرت بتمرد الملائكة وتجسدت فى ظهور امبراطوريات أشور وبابل والرومان (١) . فمنذ خطيئة آدم يبدأ تاريخ كل من هاتين المدينتين . وعلى ذلك فان معظم الجنس البشرى مواطنون بالمدينة الأرضية . أما الأقلية الذين ينتمون إلى المدينة السماوية فهم يعتبرون أثناء اقامتهم فى الأرض كغرباء أو حجاج فى المدينة الأرضية (٢) .

ويرى أوغسطين أيضاً فى كتابه ان السلام ليس ممكناً الا فى مدينة الله كما أن الدوام غير ممكن الا فى هذه المدينة وما من مملكة أرضية الا إلى زوال لأن بنيانها يقوم على جوانب الطبيعة الانسانية التى لا تصدر الا عن العدوان الجشع والرغبة فى التحكم والاستيلاء . (٣)

على أنه ينبغى أن تتخذ الحيطة والحذر . وفق ما يرى الفيلسوف جورج سباين ، لأن أوغسطين لم يرم إلى القول بأن مدينة الانسان أو مدينة الله كما صورهما تنطبقان عمليا على أية واحدة من المنظمات الموجودة فعلا . فلم تكن الكنيسة بوصفها مثالا ملموساً للمنظمات الانسانية بالنسبة لأوغسطين هى نفس مملكة الله التى عناها .. كما لم تكن الحكومة الدنيوية هى وى الشر التى عناها فى حديثه عن مملكة الشيطان . إذ لم يكن متوقعاً من أحد ساسة الكنيسة الذين اعتمدوا على قوة الامبراطورية فى محاربة الالحاد ، ان يهاجم الحكومة فيصفها بأنها تمثل مملكة الشيطان (٤) . وقد كان أوغسطين يؤمن بان كل سلطة أرضية قائمة بأمر الله وتستمد سلطانها من الله مباشرة (٥) وان كان يؤمن أيضاً بأن أثم الانسان أدى بالضرورة إلى استعمال الحكومة

---

(١) Bury, OP. cit., I, P. 304.
راجع أيضاً ج . سباين : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٢) I bid.

(٣) كولتون : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٤) ج . سباين : المرجع السابق ص ٢٧٧ .

(٥) عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

للقوة والعنف . فكان هذا العنف إذن دواء سماوى أرسل لعلاج الخطيئة (١) ويترتب على ذلك انه لم يتخيل ان هاتين المدينتين قابلتان للتجزئة ، بل ذهب إلى أن المدينة الأرضية هى مدينة الشيطان والأشرار من الناس جميعاً ، والمدينة السماوية هى المجتمع الذى يضم كل من تطهرت روحه وتخلص من الخطيئة فى هذا العالم والعالم الآخر . وهو يرى ان هاتين المدينتين ستختلطان إذن ، فى الحياة الراهنة . ويشارك اعضاء المدينة السماوية فى مزايا المدينة الأرضية واعبائها . ولكن الاختلاط ظاهرى بالرغم من هذه المشاركة . ذلك ان الخيرات المادية عند أهل المدينة الأرضية غايات يتنازعون عليها ويستمتعون بها لذاتها ، وعند أهل المدينة السماوية هى وسائل يستخدمونها لصياغة حياتهم وتحقيق الغاية الحق التى هى الفضيلة والكمال الروحى (٢) .

وفى نفس الوقت تخيل أوغسطين مملكة الشيطان فى صورة الامبراطوريات الوثنية وان لم يقل بتطابقهما . كما فكر فى الكنيسة باعتبارها ممثلة لمدينة الله ، بالرغم ان هذه الأخيرة لا يمكن أن تطابق المنظمات الكنسية مطابقة تامة . وكان من أكثر نواحى فكره تأثيراً ما اشترط توافره من الواقعية والقوة فى الكنيسة كمؤسسة منظمة . فان المشروع الذى خططه لخلاص البشر ولتحقيق الحياة السماوية ، كان يعتمد اعتماداً تاماً على واقعية الكنيسة كاتحاد يضم جميع المؤمنين . وقدرته على أن يلعب دوره فى تاريخ البشرية بوحى كلمة الله ورعايته . ولهذا السبب اعتبر أوغسطين ظهور الكنيسة المسيحية نقطة تحول فى التاريخ حيث أنها بداية لمرحلة جديدة فى الصراع بين قوى الشر والخير . ومنذ هذه اللحظة أصبح خلاص الانسان مرتبطاً بمصالح الكنيسة كما أصبحت هذه المصالح فى مستوى أرفع من أية مصالح . أخرى.

---

(١) Carlyle, Médiéval Political Theory in the West, I, P. 164

راجع أيضاً : ج . سابين : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

(٢) يوسف كرم : المرجع السابق ، ص ٤٥ – ٤٦ ؛ ج . سابين : نفس المرجع والصفحة

ولذلك فان تاريخ الكنيسة فى رأى أوغسطين هو بالتحديد «خط سير الله فى هذا العالم» . ويرى ان الجنس البشرى ليس الا أسرة واحدة . ولكنه لن يبلغ مصيره النهائى على الأرض بل فى السماء . وعلى هذا فان الحياة الانسانية ليست الا مسرحاً لصراع مختلط بين الخير المتمثل فى الاله ، والشر كما يتمثل فى الأرواح الشريرة (١) .

وفى نفس الوقت كان أوغسطين يرى انه لا يمكن أن تكون هناك دولة حقيقية بدون توافر العدل فيها . والا زال منها النظام والقانون . فهو يربط إذن بين فكرة العدالة ووجود المدينة الالهية . فيرى أنه طالما ان المدينة الأرضية قد خلقت وقامت على الظلم بسبب اغتيال قابيل أخيه هابيل . فلا ينبغى أن نتوقع وجود العدالة فيها بمفهومها الواسع العام . لأنه إذا لم يكن هناك عدل بين الأفراد المكونين للدولة ، فبدون شك ليس من الممكن أن يتوافر العدل فى الدولة نفسها . ولذا فهو شديد الايمان بأنه ليس هناك عدل الا فى المدينة الالهية (٢) .

وجدير بالذكر ان لفظى «المدينة» و «الدولة» لم يكونا قد انفصلا بعد بصفة نهائية إلى اصطلاحين محددين . فكانت الامبراطورية الرومانية فى رأى القديس أوغسطين عبارة عن مدينة (Civitas) وكذلك الكنيسة التى كانت لا تزال تطالب لنفسها بمزيد من السيادة العالمية مع الاقلال من السلطة المحلية (٣) .

ويخلص أوغسطين من وراء الأفكار التى قام بسردها فى كتابه «مدينة الله» ، انه إذا جاز أن تتحطم مدينة الانسان المبنية على القوة المادية ، فان

---

(١) ج . سابين : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .

(٢) CaM. Med. Hist., VI, P. 630; .Carlyle, op. cit., I, p. 164.

(٣) بكولتون : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

مدينة الله لا تزال بخير . وإذا كان بوسع البشر قتل الجسد فان الروح لا قدرة لهم على المساس بها . وان المدينة الأرضية تفنى كما يفنى جسم الانسان . أما مدينة الله فانها تدوم مع الروح (١) .

تلك هى أهم الآراء التى تضمنها كتاب «مدينة الله» وكان الاقبال على قراءته فى الغرب كثيراً بعد الانجيل طوال فترة العصور الوسطى (٢) .

ولا شك ان هذا الكتاب كان له أثر فعال على كل من الوثنين من ناحية والكنيسة من ناحية أخرى . فبالنسبة للوثنيين فقد وقفوا منه موقف العداء وجادلوا أوغسطين بكل عنف موجهين اليه تهمة المرطقة فى كل ما جاء به من آراء . ولكن رغم ذلك لم يتمكن أى منهم سلب أو زعزعة هذه الأفكار من عقول المؤمنين بكتابات أوغسطين حتى ولو عن طريق أخراج أى عمل مساو له فى القيمة رداً على ما انتجه (٣) .

أما بالنسبة لأثر هذا الكتاب على الكنيسة الغربية فقد تمكنت إلى حد بعيد من تحقيق المثل الأعلى المتمثل فى «مدينة الله» بفضل ضعف الاباطرة وضعف الكثرة الغالبة من الملوك الغربيين فى العصور الوسطى .. أما فى الشرق فكانت قوة الامبراطور وسيطرته حائلا دون اتمام هذا التطور ، وظلت الكنيسة أكثر خضوعاً للدولة بعكس الحال فى الغرب عندما أصبحت الكنيسة دولة داخل الدولة بحكم الظروف التى أحاطت بنشأتها وتطورها (٤) . وقد أشاعت الكنيسة الغربية عند ذاك بأن الدولة لا تستطيع أن تكون جزءاً من «مدينة الله» الا إذا خضعت لها فى كل الأمور الدينية (٥) . هذا وقد ساعدت الخطوط

---

(١) باراكلاف : الدولة والامبراطورية ، ترجمة د . جوزيف نسيم يوسف ، ص ٤٥ .

(٢) Maurice Keen, op. cit., P. 19.

(٣) Stephenson, op. cit., P 101.

(٤) Russel, op. cit., P. 360.

(٥) Ibid.

الرئيسية لفكر أوغسطين وفلسفته المدرجان فى كتاب «مدينة الله» البابوية فى تأييد مطالبها وادعاءاتها ضد الامبراطورية، إذا اكتشفت فيه العديد من الحجج والأسانيد التى ارتكزت عليها الابراز تفوق مدينة الله أى الكنيسة وعلى رأسها البابا على مدينة الانسان أى الدولة وعلى رأسها الامبراطور (١) وعلى ذلك يكون أوغسطين قد وضع فى مؤلفه فلسفة سياسية لأوروبا فى العصور الوسطى ، موضحاً فيها الحدود بين السلطتين الزمنية والدينية وظلت هذه الفلسفة قائمة حتى القرن الثالث عشر الميلادى . وخلاصة هذه الفلسفة من وجهة نظر البابوية ان الدولة قامت على أساس من الشر والغدر لأنها من صنع البشر ، فى حين أن دولة المسيح الممثلة فى الكنيسة الرومانية من عمل الله وعلى هذا تكون سلطة البابا وهو الحاكم الدينى وممثل الله على الأرض وخليفة القديس بطرس ورأس الكنيسة المسيحية الكاثوليكية فى مرتبة أعلى من تلك التى يتمتع بها منافسة الامبراطور وهو الحاكم العلمانى ويترتب على ذلك خضوع الدولة للكنيسة وخضوع الامبراطور وغيره من الحكام الزمنيين للبابا (٢) . . ولذا يمكن القول ان نظرة القديس أوغسطين استمرت ماثلة خلال العصور الوسطى كلها ، وابان ازدياد سلطة البابوية وفى أثناء الكفاح بين البابا والامبراطور حول الأمور الدنيوية ، إذ أمدتها بالأساس النظرى الذى تقيم عليه سياستها (٣) .

وليس هنا مجال الدخول فى تفصيلات الكفاح بين البابوية والامبراطورية الذى شغل أكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، وانما يكفى القول انه مر بعدة مراحل رئيسية امتدت بين عامى ١٠٧٣ — ١٢٥٠ م ، أى الفترة الواقعة بين حكم البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) والبابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤ م) . وفى كل منها كانت البابوية تعمل على اذلال ،

---

(١) باراكلاف : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة ، سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .

(٣) Russel, OP. cit., Loc. cit.,

الامبراطورية والقوى العلمانية الأخرى فى الغرب (١) .

وهناك العديد من العبارات الصريحة الواردة فى أقوال بعض البابوات نستدل منها على ان نظرة القديس أوغسطين وآرائه الموجودة فى كتاب « مدينة الله » استمرت ماثلة دائماً فى أفكار ذوى الطموح من رجال الكنيسة .. فنجد مثلا البابا تيقولا الأول (٨٥٨ — ٨٦٧ م) يقول إذا عجز الحاكم العلمانى عن المحافظة على السلام وجب على الكنيسة ان تتدخل فى الأمر وأن تتولى الحكم . بينما طالب البابا جريجورى السابع بأن تكون الدولة التى أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التى أسسها قابين (قابيل) . ويضيف ان من حق البابا تعيين الأمراء فى مناصبهم الدينية واقطاعياتهم الدنيوية على السواء ، ومن حقه أيضاً عزلهم منها . وبلغت هذه المبادىء المنطرفة ذروتها فى عهد اينوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦ م عندما قال أن البابا خليفة الله والقديس بطرس على الأرض ، وهو تلميذ المسيح وبيده وحده مفاتيح السماء . وان الله عز وجل خلق فى الكنيسة سلطتين أولاهما سلطة البابوية لتشرف على رعاية أرواح اتباعها ، وثانيتهما الملكية لتحكم فى الأجساد . ولكن سلطان الأولى يفوق بكثير سلطان الثانية فكما يستمد القمر ضوءه من الشمس كذلك تستمد الملكية قوتها من البابوية . (٢)

---

(١) حول الصراع بين البابوية والامبراطورية انظر :

S. Mattews, Selecte. Medieval Documents (1900) PP. 122 — 129, 132 — 141; W. Stubs, Germany in the Early Middle Ages (1908), PP 220 — I; 223; IDem, Germany in the Later Middle Ages (1908), PP 38 —40; 414; T.F. Tout, the Empire and the Papacy (1909), PP 367 — 69; J.L, La Mont, The World of the Middle ages, P. 257 — 74; 391 — 94; N.F Cantor, The Medieval World (1963), 69 — 81; M.W. Baldwin, The Medieval Church (1953), 85— 9; E. Lewis, Medieval Political Ideas (1954), II, 432 — 435.

(٢) بارکلاف : المرجع السابق ص ٤٧–٤٨ .

لا شك ان هذه المبادىء والآراء التى نادت بها الكنيسة ، والتابعة مما أوصى به أوغسطين فى مؤلفه «مدينة الله» كان لها أثر كبير فى هيمنة الكنيسة الكاثوليكية بيد من حديد على مصائر الناس وعلى حياتهم الخاصة والعامة حتى ان كل من كان يخرج على تعاليمها وقيودها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب . وما أكثر أسلحتها التى كانت ترهب بها معارضيها من حرمان ولعنة وقطع (١) .

تلك هى أهم الآراء والنقاط التى تضمنها كتاب «مدينة الله» الذى ظهر فى أوائل القرن الخامس الميلادى . وفى عام ٤٣٠ م أى بعد انقضاء أربع سنوات على الانتهاء من تأليفه ، مات القديس أوغسطين أوف هيبو — أثناء حصار الونوال لمدينة هيبو (٢). ودفن فيها . ولكن فى عام ٥٠٦ م نقلت رفاته من هناك إلى ساردينيا ، وظلت بها حتى أمر لويتبراند ملك اللومبارديين عام ٧٢٥ م بنقل الرفات من مكانه إلى جنوه أولا ثم إلى باڤيا بعد ذلك . وهناك تم بناء كنيسة تضم رفاته ورفات قديس آخر اسمه بيتر . ولكن تخليداً للذكراهما تم بناء كاتدرائية كبيرة فيما بعد تضمهما معاً . (٣)

---

(١) باراكلاف : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) الوندال هم احدى القبائل الجرمانية وتتسم غزواتهم بالقسوة والعنف والوحشية حتى أصبح لفظ الوندالية (Vandalism) فى اللغات الأوروبية الحديثة يستخدم مرادفاً للهمجية والوحشية . اسسوا مملكة لهم فى شمال افريقيا سنة ٤٢٩ م بقيادة ملكهم جنسريك . ولم يستطع أهالى افريقيا سوى الامتثال لحكم القدر . ولكن لم تعمر مملكة الوندال كثيراً فبعد اعتلاء جستنيان عرش الامبراطورية البيزنطية نجح فى القضاء على هذه المملكة واستردها منهم سنة ٥٣٤ م . انظر : محمد الشيخ : الممالك الجرمانية فى أوروبا فى العصور الوسطى ص ٢٧–٢٩ سعيد عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٨٩ راجع أيضاً :

Oman, The Dark ages, PP. 7—9.

(٣) Ludolph, Description of the Holy Land, cf. Porlestine pilgrims' Text Society, PP. 22— 23.

وبعد وفاته ببضعة شهور أشعل الوندال النار بمدينة هيبو . وكان من من حسن الحظ ان النار لم تمتد إلى المكتبة فنجت من الحريق ، وكانت فيها كل كتابته الضخمة ومن بينها كتاب «مدينة الله» موضوع هذه الدراسة (١)

وهكذا عاش أوغسطين ومات وهو أستاذ من أساتذة الكنيسة المسيحية ومؤسس الفلسفة الوسيطة ، وتاركاً بصماته وتأثيره على الغرب المسيحى منذ أيامه وحتى وقتنا الحالى .

---

(١) Gibbon, op, cit., P. 56.

وقد خلف أوغسطين ١١٣ كتاباً ومقالة ، وما يزيد عن مائتى خطاب وخمسين موعظة ولعل من أكبر أعماله كتاب الاعترافات الذى يعد ترجمة لسيرة حياته ، فضلا عن كتاب (مدينة الله) انظر :

Donald, op, cit., P. 56.

« الترجمـــة العـــربيه »

(كتبت هذه المقاله لتكون واحدة فى سلسلة المحاضرات النموذجية فى المجالات السياسية والاجتماعية التى قام بتنظيمها فرع الجمعية التاريخية بجنوب غرب لندن . وقد اقترح فرع الجمعية الموضوع . ونسجت فكرة المحاضرة لتكون مدخلا لدراسة الأدب الحديث) .

وعندما شرع أوغسطين فى كتابة هذه المقالة لم يكن فى ذهنه أن يجعلها تمس النواحى السياسية أو الاجتماعية ، فقد خصصها أصلا للدفاع عن الدين المسيحى . وعلى ذلك فهى آخر التبريرات وأكبرها دفاعاً عن المسيحية فى الفترة البكرة من تاريخ الكنيسة . ولكن مما لا شك فيه ان العقيدة السياسية لعالم العصور الوسطى قد اشتقت من فكرة «مدينة الله» وأصبحت عبارات أوغسطين نداءاً وشعاراً للمناقشات السياسية الجادة فى أماكن مختلفة . ونحن هنا مهتمون بأفكار أوغسطين نفسها ، وليس بتلك التفسيرات التى نسجت ، حولها من الأجيال اللاحقة له . ويجب أن نتذكر دائماً أن موضوع «مدينة الله» قد استغرق اعداده ثلاثة عشر عاماً إلى أن انجزه أوغسطين . وتم نشره على اجزاء مختلفة ولذلك لم يكن من الميسور مراجعته كوحدة واحدة عند الانتهاء منه . ولم يكن أوغسطين مفكراً منهجياً كما انه لم يكن متحمساً لكتابة مقالة فلسفية ، وقد قاوم أى مؤثرات خارجية . وكانت كتاباته متكاملة الرد ضد تلك الاستفزازات الموجهة اليه وتلك المؤثرات الخارجية عليه . وكان عليه بصفته اسقفاً أن يهتم بشئون الكنائس من ناحية مشاكل التعليم وحماية أفواج المسيحيين من الظلم والطغيان والدفاع عن العقيدة المسيحية ضد الضلال والانشقاق عن الدين . ولم يكن ناسكاً فى دراسته وانما اتسم بالهدوء، وكتب القديس أوغسطين عن («مدينة الله» فى لحظات ، شاردة لا تعد ، وكان هذا العمل كفيلا بالرد فى نحد واضح على استيلاء الاريك القوطى على روما عام ٤١٠ م . ولكن بمضى السنين نما بين يديه المشروع (١) الذى كان قد بدأه من قبل وبصعوبة عاد اليه وقد تراجع عن ذلك الاستطراد

---

(١) المقصود به كتاب «مدينة الله (المترجم) .

الذى لازمه لفترة فى الكتابة متناسياً كل مصالحه . وكان المجتمع الذى واجهه القديس أوغسطين بهذا المؤلف متنوعاً جداً . ففيه عابدوا الأوثان ، والمسيحيون الأغبياء فى إيمانهم ، وأقوام غير متعلمه ، وفلاسفة على قدر كبير من الاستعداد للمجادلة ، وطبقات أخرى متعددة على مستويات مختلفة من الفكر . كل هذه الأمور يجب أن يتذكرها تماماً القارىء الحديث . فان دراسة «مدينة الله» لم يكن بالأمر السهل . (١)

لسنا بحاجة للحديث عن القديس أوغسطين أو الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع فكان تولية قسطنطين (٢) عرش الامبراطورية الرومانية حداً لنهاية الاضطهادات الكبيرة التى تعرض لها المسيحيون (٣) . فقد

---

(١) حول تحليل مدينة الله – انظر :

Joseph Rickaby, St. Augastin,
city of God (burns, oates & Washbourne, 1925).

(٢) يعتبر الامبراطور قسطنطين (٢٠٦ – ٣٣٧)م من أبرز الشخصيات فى التاريخ الأوروبى الوسيط نظراً للأعمال الجيدة التى قام بها . والتى كان لها أثر واضح فى تغيير وجه التاريخ . ويتميز حكمه بعملين على جانب كبير من الأهمية . أولهما اعترافه رسمياً بالمسيحية وجعلها الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية وبكنيستها باعتبارها كنيسة الدولة وعلى رأسها الامبراطور . وثانيهما تشييده القسطنطينية على ضفاف البسفور ونقل عاصمة الامبراطورية من روما اليها عام ٣٣٠ م وتدل تشريعاته وقوانينه على احترامه للنفس البشرية ولمزيد من التفصيلات انظر

Baynes, Constantine the Great, P. 3; Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzanitne, I, P. 45.

وكذلك باراكلاف : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ح ؛ : (المترجم) .

(٣) كانت الحكومة الرومانية منذ بداية ظهور الدين المسيحى ، تعتبر اعتناق المسيحية جرماً كبيراً فى حق الدولة . فتعت اجتماعات المسيحيين ، وأخذ تتنظم حملات الاضطهاد ضدهم . وقام بهذه الموجة الاضطهادية ضدهم عدد كبير من الأباطرة الرومان الأول أمثال نيرون الذى قدم مسيحى روما طعاماً للنار التى أشعلها عام ٦٤م ، وترجان (٩٨–١١٧م) وهادريان (١١٧–١٣٨م) وأنطونيوس بايوس (١٣٨–١٦١م). وماركوس اوريليوس (١٦١– ١٨٠ م) ولكن رغم هذا كان اتباع هذه الديانة فى ازدياد مستمر مما دفع الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤–٣٠٥م) الى التطرف فى قمعهم . فأصدر عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم كنائسهم وحرق كتبهم ،

اختار لنفسه العقيدة المسيحية . وعلى الرغم من انه لم يتمكن من جعلهاديانة الدولة الرومانية ، فقد تمكن من أن يلقى بتأثيره فى خضم المحيط المسيحى ، كما أنه تمكن من تعليم أولاده كمسيحيين . وكانت حركة الردة التى ابتدعها جوليان (١) قصيرة الأجل لم تعمر طويلا ، عادت بعدها الامبراطورية أكثر مما كانت فى قبضة الحكام المسيحيين حتى ختام القرن الرابع . وكان ثيودوسيوس الأكبر (٢) حراً فى اعلان المسيحية كدين رسمى للدولة

وحبس قسطنطيوس ، حتى راع ضحية هذا الامبراطور عدد كبير من المسيحيين وقد أطلق على الفترة الأخيرة من حكمه (عصر الشهداء) ولكن فى نهاية الأمر خرجت المسيحية من بوتقة هذه المعارك منتصرة لاسيما بعد أن أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير مرسوم ميلاد عام ٣١٣ م معترفاً بها ديانة رسمية للامبراطورية : انظر سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٥٠ — ٥٣ ، د ، ه بارو : الرومان — ترجمة د . عبد الرازق يسرى ص ١٨٣ — ١٩٦ ومن المراجع الأجنبية أنظر :

Hoyt & Chodorow, op. cit., PP. 28 — 36; Duchesne, op.cit., I, PP. 110 — 115.

(المترجم)

(١) تولى عرش الامبراطورية عام ٣٦١ م لمدة عامين وكان متمسكاً بأهداف الحضارة اليونانية الوثنية فتخلى عن المسيحية سراً قبل توليه منصب الامبراطورية . وعندما تولى هذا المنصب أعلن ارتداده عن المسيحية وأخذ يعمل على تخليص الوثنية من تعاليم المسيحية ، فأمر بفتح معابد الوثنية وزينها . ولكن فى النهاية فشلت محاولته فى القضاء على المسيحية وإعادة الوثنية مرة أخرى إلى الامبراطورية لأن المسيحية كانت قد تأصلت جذورها فى كيان العالم الأوروبى بشكل لا يسمح لأحد حتى ولو كان الامبراطور نفسه أن يعود بها إلى الماضى الوثنى .

(المترجم)

(٢) حكم هذا الامبراطور فى الفترة من ٣٧٩ حتى ٣٩٥ م . ويرجع اليه الفضل فى توحيد العالم الرومانى تحت حكمه عام ٣٩٤ ، ووضع حداً فى جعل المسيحية هى ديانة الامبراطورية الرسمية كما قضى تماماً على بقايا الوثنيين باالموجودين بالامبراطورية . وكان هذا الامبراطور قد قسم الامبراطورية إلى قسمين بين ولديه فكان القسم الشرقى من نصيب ابنه اركاديوس ، فى حين صار القسم الغربى من نصيب ابنه هونوريوس . وأصبح كل منهما مستقلا عن الآخر وأسس لنفسه دولة وأسرة قائمة بذاتها وراجع :

Vasil iev op. ci.t, I, P. 82 — 83.

(المترجم)

الرومانية الارثوذكسية . وأما أوغسطين (موضوع هذه الدراسة) فقد ولد فى منتصف القرن الرابع الميلادى عام ٣٥٤ م فى طنجة ، وهى احدى المقاطعات الرومانية فى أفريقيا . وكانت مونيكا Monica مسيحية ، أما أبوه فكان وثنياً . وانتقل أوغسطين من طنجة إلى مادورا Madaura (١) حيث أتم دراسته الأولى . وعند ذلك انتقل للدراسة الجامعية فى قرطاج . وفيها تعلم علم البيان والبلاغة وبعد ذلك ترك أفريقيا عائداً إلى ميلان فى ايطاليا ، حيث اهتدى بالمسيحية ثم عاد إلى افريقيا وقضى كل حياته كقس وأسقف . وكانت كنيسة افريقيا الشمالية ممزقة لانشغالها عن الدين المسيحى ، فقد ادعت جماعة الدوناتيين(٢) الذين انتسبوا (Donatus..) فى هذه التسمية إلى دوناتوس (Donatus.) مؤسس مذهب الانشقاق بأنها فقط الممثلة لكنيسة المسيح الحقيقية ، وان كابكيليان (Caecilian) الأسقف الكاثوليكى لقرطاج قد عين فى هذا المنصب بواسطة احد الخونة ، وهو احد الذين تركوا الكتاب المقدس لسلطة الدولة وقت الاضطهاد الكبير . ومن كنيسة غير شريفة هكذا انسحب الدوناتيون . ورغم الاغراءات والاضطهادات استمروا فى انشقاقهم ، ولم تؤثر هذه الأمور كلها على جهود أوغسطين فى العمل لصالح الكنيسة الكاثوليكية ليجبر — الدوناتيين على الدخول مرة أخرى فى حظيرة المجتمع المسيحى الكاثوليكى (٣) . . وقد

---

(١) تقع على بعد ٢٠ ميل من طنجة ، وكانت فى هذا الوقت تضم نخبة كبيرة من الرومان المثقفين . (المترجم)

(٢) ينتسبون إلى دوناتوس أسقف قرطاج ، وكانوا يقيمون فى شمال افريقية وكانوا متطرفة من وجهة نظر الكنيسة المسيحية الكاثوليكية وقد خصص البابا جريجورى جزءاً من نشاطه لمحاربتهم والقضاء عليهم . وكانوا يرون أن الأساقفة الذين تخلوا عن الكنيسة خلال فترة الاضطهاد لن يسمح لهم بالعودة إلى مراكزهم السابقة . وكانوا يشترطون سمو مركز الأسقف الذى يقوم بتقديم القرابين المقدسة والا اعتبر ما قام به باطلا أنظر :

Hoyt, op. cit., PP. 35 — 36, 46.

(١) فيما يختص بالدوناتيين انظر : (المترجم)

Poul Monceallx, Histoire litteraire de, l'Afrique (Paris, 1912/.

وقد مر بذهن أوغسطين فى فترة طفولته أثناء تعلمه المسيحية أشياء شريرة ولكنه أعرض عنها واهتدى إلى الايمان بعد قراءته لمؤلف شيشرون المفقود واسمه هورتنسيوس (١) وأصبح فيلسوفاً ، ثم أجتذب لفترة إلى الديانة الثنائية للمانوية Manichaens (٢) ولكن خابت آماله فيها ، وتأكد من أنها كانت مجرد هفوة عاد بعدها إلى عقيدة أمة ، وإلى الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية . وعرف أوغسطين كلا العالمين الوثنى والمسيحى .

وعندما سقطت روما ، المدينة الخالدة ، مركز الحضارة العالمية أمام القوط ، بدا هذا فى أول الأمر وكأنه الضربة المميتة للحضارة نفسها (٣) وأخذ الناس يتساءلون عما إذا كانت هذه الكارثة المدمرة قد حدثت فى روما من قبل ؟ فقد كانت روما خلال القرون العديدة السابقة منذ عصر الجمهورية فى تقدم مستمر ، ونسب الرومان تقدم روما واتساع حضارتها وانتصاراتها الباهرة عن قوتها إلى اخلاصها لآلهتهم المحلية واضطهادهم لعابدى الأوثان . وظن الأهالى ان هذه الكارثة يجب أن تؤدى إلى حنق الآلهة وسخطها خاصة وقد أهمل الأهالى عبادتها داخل الدولة المسيحية فكان المسيحيون مسئولين عن سقوط روما ، موحدة العالم البرى ، فكان هذا الكتاب «مدينة الله» رداً «للتحدى» على ما حدث فان تعدد الآلهة لم يسبب عظمة روما ، فانها كانت أضعف من أن تجلب السعادة إلى الناس سواء فى هذا العالم أو فى العالم الآخر . وهكذا يكون الجزء الأول من الكتاب سلبياً فى حواره العام ومن مجادلة الوثنيين تجول أوغسطين فى الجزء الثانى من تضاله الايجابى : فهو يصور لنا مدينتين — مدينة الله — مدينة الشيطان — ومن خلال دراسة هاتين المدينتين تكون المسيحية الضمان والمصدر الوحيد للبركة .

---

(١) انظر ما سبق ص ١٥١ (المترجم)

(٢) CF. F.C. Burcitt, The Religion of the Monichees (Cobridge universitypress, 1925).

(٣) انظر ما سبق عن سقوط روما ص ١٥٤ — ١٥٥ (المترجم) .

ولا نرى الآن فى المعنى الذى يعطيه أوغسطين لكلمة المدينة معنى ثابتاً متماسكاً . فهى يمكن أن تعنى «مدينة» ، وفى بعض الأحيان نراها تستخدم فى المعنى «كولاية» ويرى الباحثون انه ليس هناك أى كلمة يمكن أن توضح فى المعنى صلاحية الفكر الأساسى الذى يعنيه أوغسطين . ولعل أفضل تفسير يمكن أن يثبت هذا الفكر مثل كلمة «مجتمع» فهى توضح تاريخ مجتمعين وهما فحوى الموضوع الذى تحدث عنه ولن يكون أى من هذين المجتمعين كاملا ومتحداً فى أى مجتمع من المجتمعات الأرضية . وتتكون مدينة الله من الملائكة والقديسين بينما يكون الشياطين مدينة الشيطان وابتداء من استعمال كلمة مدينة يكون الأمر مجازياً ، إذ استخدمت كما يقول أوغسطين نفسه «كعالم روحانى» . ولكن عندما فسر أوغسطين النظرية المتعلقة بأفكاره عن تاريخ المدينة الأرضية ذكر مجتمع الأرض وليس الولاية : ولم يكن المجتمع السماوى وهو الكنيسة . ولكن عندما يصل إلى ممثلى هذين المجتمعين على الأرض — وعندما يعالج الموضوع بالخبرة . فان الدولة الرومانية تصبح ممثلة للمدينة الأرضية والكنيسة بمثابة المجتمع السماوى وهكذا يمكن أن نرى العصور الوسطى فى صورة مجتمعى الدولة والكنيسة .

وتأتى فكرة المدينتين أخيراً من الانجيل حيث التعارض الواضح فى صفة بيت المقدس تلك المدينة المقدسة ومدينة بابل القديمة (١) . ولكن أحدث البحوث اتجت مباشرة لاظهار أوغسطين بأنه اشتق مقالته من تيكونيوس (Ticonius) الدوناتى) والذى تخيل نهاية الحياة وشرحها فى كتاب الوحى ، وهو قريب الشبه إلى حد كبير بخطوط الموضوع ، الذى نحن بصدد دراسته هنا ولعلنا هنا نجد اختلافاً كبيراً بين المدينتين مدينة الله ومدينة الانسان . فالأخيرة تبحث فى خدمة العالم ، بينما تبحث الأولى لخدمة

---

(١) لعل المقصود من هذا أنه فى الوقت الذى كانت تتصف فيه المدينة المقدسة بالطهارة والايمان ، كانت مدينة بابل يملؤها الفساد الناتج عن الازدهار الحضارى الذى يتفق مع طبيعة الحياة المعاصرة لتلك الفترة الزمنية (المترجم) .

المسيح . احداهما ترغب فى حكم هذا العالم بينما الأخرى ترغب فى الهرب منه احداهما تقتل والأخرى مقتولة . احداهما لا تهتم بعذاب الآخرة والأخرى تكافح للتخلص منه . وهكذا قد لاح لأوغسطين أن يقتبس من المثقفين عن الدين وذلك التعارض الكبير الذى بنى عليه مؤلفه . فان مدينة الايمان معارضة لمدينة الكفر ، فالايمان يقف ضد الكفر . وقد اتصفت المدينة السماوية بالخضوع والطاعة بينما اختصت مدينة الأرض بالكبرياء وشهوة الحكم . ويضيف أوغسطين فى مقدمة كتابه هذا النص من الكتاب المقدس «لا يستجيب الله للمتكبر ، ولكنه يعاون المتواضع ويصفح عنه» (١) . هذا هو وجه الخلاف بين الخضوع والكبرياء وبين المادية والروحانية .

وسيطر هذا التعارض بين المادة والروح على فكر أوغسطين لأن الصراع بينهما كان مسيطراً على كل حياته . ولعل قراء كتاب الاعترافات (٢) سوف يتذكرون الجهد الكبير الذى بذله أوغسطين فى هذا البحث من أجل ابراز الحقيقة وكذلك حالة اليأس التى احاطت به ومخاضة فى التحرر منها بفضل خضوعه لسلطة الكنيسة . فلم يتم هذا عن طريق العقل وانما من خلال الآلهام وكان من فضل الله أن يأتى الحل . فلم يكن انجازاً بشرياً وهكذا ، لأن فكر أوغسطين كان يتجه فى كل مكان فى هذا الازدواج ضعف الانسان وإذا ما جاء فضل الله ورحمته فليس هناك مفر من مقاومتهما . وهنا يكون أصل التشاؤم العميق لدى أوغسطين عن حياة وخلق الأنسان . فالبؤس والموت من نصيب الانسان على الأرض ، فالانسان إذا ما علم بموعد الموت لاحقه بالضرر واليؤس ؟ ومهما كانت بلاغة وفصاحة المناقشات التى يحضرها فلن تكفيه للخروج من تعاسة هذه الحياة ؟ . فالشىء الوحيد النافع للانسان فى حياته هو صلته بالله . فحياة الانسان فى أى مكان قصيرة . الأجل وبصدد الموت فى أى وقت . فعليه فقط أن يقوم بخدمة الله ؟ . ويقول — فيشت

---

(١) I Peter V. 5, CF. James IV. 6.

(٢) سبق أن تحدثنا عن هذا الكتاب ص ١٥٢ (المترجم) .

— » ان شخصية الانسان هي التي تحدد وتبني فلسفته . ولا شك كانت سبباً في الايحاء له بفكرة المدينتين . وهناك نوعان من الحب كان لكل منهما أساساً في تكوين هاتين المدينتين . فالمدينة الأرضية مبنية على حب الذات إلى حد امتهان الله . والمدينة السماوية مبنية على حب الله إلى حد امتهان الذات ولذلك فان احد هذين المجدين لذاته والآخر لله .

ولم تلازم الحياة الاجتماعية أي شر داخلي . فالله قد خلق الانسان ليكون أساس المجتمع ففي الجنة شكل الانسان ووهبه زوجة لمرافقته . وكان ثمرة هذا مجيء النسل الحقيقي للجنس البشري . مكوناً نواة الحياة العائلية التي تعتبر بذاتها العمود الفقري للمجتمعات كلها . وكان التناسل كما أراده الله عملاً نقياً خالياً من الرغبة المضطربه . وقد أدى سوء استعمال الانسان لرغبته الحرة إلى الوقوع في الخطأ ، فحلت عليه لعنته أدم فورث خطأه ، فكان هذا بداية لرحلة عذاب الانسان وذريته من بعده . وكان هذا سبباً في فساد تلك الحياة الاجتماعية الحرة التي من أجلها خلق الله الانسان . وقد اسست الدولة أو المدينة بواسطة قابين قاتل أخيه ، ويعتبر خضوع الانسان للآخر ثمرة رديئة تبحث عن خطيئة آدم ، تماماً مثل بداية العبودية فهي ثمرة ناتجة عن نفس هذا الخطأ . وكانت نظرية أوغسطين عن الدولة لا تتمثل في الفردية ، فالدولة هي الأفراد التي يتكون منهم الشعب وتتجدد شخصيتها طبقاً لسلوك مواطنيها : وان لم يكن هناك عدل بين الأفراد المكونين للدولة ، فبدون شك ليس من الممكن أن يتوافر العدل في الدولة نفسها . هذه الخلفية يجب أن يتدارسها كل فرد يقبل على المناقشة في موضوع «مدينة الله» من التعريف الحقيقي للدولة . ويأخذ أوغسطين بتعريف شيشرون عن الجمهورية — الدولة : هي اجتماع عام يتم فيه اقرار القانون والاعتراف بمصالح المجتمع وتقدمه . ويشرح شيشرون بتوسع ما يعنيه من الاعتراف العام بالقانون . فهو يرى أنه لا يمكن ادارة أي جمهورية بدون عدل . وطالما أنه لا يتواجد عدل حقيقي ، فلا يمكن أن يتواجد القانون . وعلى ذلك لا

لا توجد جمهورية حيث لا يوجد عدل . فالعدل هو الفضيلة التى تعطى كل انسان حقه . ولكن كما هو واضح عند أوغسطين ، فان نهاية الانسان هى العبادة الحقيقية لله . فأين إذا يكون عدل الانسان عندما يبتعد تماماً عن الله ويترك نفسه إلى الشياطين النجساء ؟ فهل سيعطى هذا كل فرد حقه ؟ أم هذا الذى يسلب قطعة أرض من صاحبها ويعطيها إلى رجل لا يملك فيها أى حق على الاطلاق ، ولا يكتفى بهذا وانما يواصل ابتعاده عن الله الذى خلقه ، ويقوم بخدمة الأرواح الشريرة . فهل هذا الوضع يعتبر صحيحا ؟ . وهكذا نجد أوغسطين نفسه أمام خيارين من الأفكار . هل الدولة الرومانية كانت جمهورية على الاطلاق ؟ أم اسقاط العدالة من تعريف الدولة . فنراه قد اختار انكار الطريق الثانى ، ووضع مقدمة من عنده لتعريف الدولة فهى اجتماع أفراد الشعب العقلاء على أن تربطهم معاً اتفاقية عامة الهدف منها ايجاد الخير بينهم » . فلنتوقف لحظة ونطبق تأثير هذه المناقشة على نظرة أوغسطين عن شخصية الدولة . فكان يوجد فى الكنيسة المبكرة عادات قوية وكان الاحتفاظ بالعدل جزء أساسياً من أهداف الدولة : وقد حث القديس بولس على طاعة الدولة على الأرض على أن تكافأ الدولة المحسن وتعاقب الشرير . وقد عرف كليمنت السكندرى (١) الملك بأنه أحد هؤلاء الذين يحكمون طبقاً للقانون . بينما أوضح امبرواز أستاذ أوغسطين أن ، العدل والاحسان هما الفضيلة الحقيقية الهامة لأى مجتمع ، وانهما قوة الدولة بينما بسبب الظلم فسادها . وكانت هناك محاولات توضح ان أوغسطين لم يكن يعنى حقيقة اسقاط العدل من تعريف الدولة فهو يتحدث هنا ويقول انه الهام من العدالة الالهية . وان يظل عدل الانسان فى الدولة . ويضيف مستر

---

(١) ولد فى اثينا فى القرن الثانى الميلادى ، وقد اختلف الكثيرون حول تحديد وفاته فى أعوام ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ولكن من المؤكد انه عاش فى الاسكندرية ، وعمل استاذاً بها وكاتباً وواعظاً . فكانت الاسكندرية بالنسبة له الموطن الثانى أنظر :

Claude Mondesert, Clement d'Alexandrie, P. 27.

(المترجم)

كارليل Carlyle ـ القول المأثور لأوغسطين «ان تنحى العدل فلن تكون الممالك الا لصوصية كبرى» (١) . ولعلنا نعتبر من خلال هذا القول ان ان النقطة الوحيدة للتمييز بين عصابة لصوص وأى مملكة ان الأخيرة لها صفة العدل (٢) . ولكن كما كتب مستر كريستوفر داوسون «ان المعنى الحقيقى لهذه العبارة يعنى عكس ذلك» . ويواصل القديس أوغسطين مناقشته فيقول انه لا يوجد اختلاف بين الغازى والسارق الا فى التخطيط لعملياتهم . ويستمر فى الجدل قائلا «ماذا تكون اللصوصية الا مملكة صغيرة ؟ » ويبرهن على ذلك الرد فى قول القرصان إلى الاسكندر الأكبر (لأننى أفعل هذا مع مركب صغير فيطلق على لص ، ولكنك تفعل هذا مع أسطول كبير فيطلق عليك امبراطور . (٣) ولم يكن هناك أدنى شك فى أن أوغسطين كان يعنى ماذكره . ويقول مستر كارليل «ان كان أوغسطين قال هذا فلا يمكننى قوله وانه لخطأ كبير يرثى له لا يجب أن يصدر عن معلم مسيحى كبير» . ولكن بعد كل هذا جاءت خاتمة أوغسطين كنتيجة طبيعية لتلك المقدمات التى أخذت فى الاعتبار وكان لنظرة أوغسطين صدى وقوة كبيرة عند الكاردينال نيومان (New man) (٤) فقال لم تنشأ الممالك الأرضية بالعدل ولكنها تأسست بالظلم وانها خلقت بالسيف والسرقة والظعيان والحنث فى اليمين والحيلة والخيانة . فلم توجد أى مملكة لم تقع فى الخطأ غير مملكة

---

(١) مدينة الله ، الكتاب الرابع ، الفصل الرابع .

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذه النقطة انظر :

Carlyle, op. cit., I, P. 167. (المترجم)

(٣) توضيحاً للرؤية فان أوغسطين لم يقصد انكار تملك الدولة الوثنية للعدل . انظر اصطلاحاته المتكررة حول انتقاد عدالة الامبراطور الوثنى جوليان المرتد انظر على سبيل المثال

Contra litt petiliani, II, P. 203, 205' EP. 105, 9.

(٤) From'' Sanctity the Token of the Christian Empire,'' in Sermons on subjects of that Day, P. 273 (First edition).

Cited by Mr. Dawson.

المسيح التى لم تولد بعد . ولم يكن هناك دولة على الاطلاق وانما كانت جمعية تضع قواعد للحكم فكان ولابد وان يصيبها الدمار . (وأخذ يتساءل) أى الممالك الموجودة لم تبدأ بالغزو أو بالاغتصاب ؟ .. وأى الثورات التى لم تتم بدون اصرار ، وعنف أو رياء (وأى الحكومات الشعبية التى لا تتعرض لهزات كما لو أنها لا ضمير لها ولا مسئولية ؟ وأى حكومة اقلية لا تتسم بالأنانية وكثرة الشك فيمن حولها ؟ وأين تلك القوة العسكرية التى تخوض الحرب بدون اهتمام .

وأين تلك التجارة الرابحة بدون الجشع وحب المال الحرام الذى هو أساس كل شهرة ؟» ان هذه التساؤلات كلها انما تعبر عن تشاؤم عميق تماماً مثل ما بداخل أعماق أوغسطين ..

وحتى إذا لم تتمكن الدولة الأرضية من تحقيق العدالة كامتياز لها وحتى بالرغم من أنها تأسست بمعرفة قايين وساد فيها الفساد منذ البداية عن طريق وراثة خطيئة آدم ، فهى مع ذلك مازالت جزءاً من العناية الالهية . ويتم اختيار الحكام بمعرفة الله ويأتمرون بأمره . وقد تبنت الكنيسة المبكرة النظرية اليهودية فى السلطة الأرضية . والمذكورة فى العهد القديم . فلم يكن فقط الملوك الذين عبدوا يهوه (Jehouah) الذى منحهم عروشهم ممالك وثنية التى اضطهدت اتباع يهوه قد عينوا بمعرفته . ويتحدث دانيال إلى نبوخذ نصر «انت يا ملك الملوك والذى منحك الله الموجود فى السماء المملكة والقوة والعافية والمجد » (سفر دانيال ، اصحاح ٢ آية ٣٧) . ونقرأ فى كتاب حكمة سليمان «اسمعوا ياملوك ، وادركوا ان تلك القوة المعطاه لكم انما من عند السيد والحاكم والأكبر من كل شىء » . حكمة سليمان الاصحاح ٦ ، آية ٣) وقد تذكر المسيحيون ان سيدهم المسيح - أمر بطرس بأن يأخذ قطعة من المال كجزية «واعطيها لهم عنى وعنك» (متى ، اصحاح ١٢ ، آية ٢٦) وقد ردد المسيحيون كلماته أمام بيلاطوس الحاكم الرومانى «انك لن تملك اتخاذ أى قوة ضدى ما لم تعط لك من الله» (حنا ، اصحاح ١٩ اية ٢) .

ومثل هذه النصوص قد أوحت إلى فكر القديس بولوس الرسول ، وجعلت المسيحيين يتمسكون بتصريحه : «لا توجد قوة غير قوة الله وان وجدت فلابد وأن تكون موهوبة من الله» ولذلك فمن يقاوم القوة يعتبر مخالفاً لشريعة الله . وفى هذه الحالة عليه أن يتلقى العقاب » (رسالة بولوس للرومان ، اصحاح ١٣ آية ١ — ٢) (١) . ولم تكن نية الله الأصلية ان يخلق الانسان ليفرض خضوعه على غيره من بنى البشر . فكانت هذه نقطة البداية عند أوغسطين . ولكن هذه النية قد تم مخالفتها خطأ الانسان .

فكان على الله أن يواجه هذه الحالة المغايرة . إذن لابد وأن تكون هناك حكومة اجبارية لتقابل هذا الخطأ ، ويكون لها حق العقاب والاصلاح . وكرد فعل مضاد للخطأ لابد وأن يكون للدولة الأرضية سنداً مؤيداً لها وأن تتحكم فى زمام الأمور — وأخيراً فان طرق الله أعلى من مفهومنا . فهو يختار نوعية الحكام حسب ما يستحق الانسان .

وهكذا فطاغية مثل نيرون (١) وهو المثل التقليدى لأسوأ نموذج للحكم قد تم تعيينه بمعرفة العناية الالهية . فعلى اتباع المسيح التسامح حتى مع أسوأ وأفسد دولة . وعليهم أن يفهموا جيداً أنهم بمثابة الحجاج على الأرض ، وان مكانهم لم يكن فى الأرض وانما فى السماء وهذا لا يوجد فى دولة وثنية ويمكن للمسيحيين أن يتوقعوا أن يجدوا تحقيقاً لآمالهم .

وتمثلت المدينة الأرضية فى تعاقب الامبراطوريات التى سيطرت على العالم القديم . ومنها أخذ أوغسطين مثلين تطبيقين . الامبراطورية الآشورية

---

(١) انظر كتاب المؤرخ الألمانى (Franz Joseph Dolger) المسيحية المبكرة ، ج ٣ ص ١١٧ — ١٢٧ (١٩٣٢) .

(٢) حكم هذا الامبراطور روما فى الفترة الواقعة بين عام ٥٤ ، ٦٧ م ، واتسم حكمه بالقسوة والحنق الشديد ضد المسيحيين . فكان لا يتورع فى ابتكار وسائل عديدة ووحشية لتعذيبهم حتى يرتدوا عن دينهم . واستمر هذا الحال فى عهد خلفائه من بعده حتى تولى قسطنطين العرش واعترافه بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة (المترجم) .

كمثل للشرق وروما كخليفة لها فى الغرب ولكن الحديث عن روما يكون أكثر واقعية وبغى أهدافنا الحالية فى اظهار تاريخ المدينة الأرضية وقد وجد سالوست Sallust — فى مقدمة مقالته عن مؤامرة كاتيليا ريان ان ازدياد الترف كان سبباً فى انهيار الجمهورية الرومانية خلال الفترة التى اعقبت الحروب البونية (١) ويضيف أوغسطين مقتطفات من مقالة سالوست ولكنه يعود إلى الوراء فى التاريخ القديم أكثر من هذا إلى الصورة المتشائمة للدولة الرومانية تلك الدولة التى تأسست كما تأسست مدينة قاين قاتل أخيه . وفى الحال بعد طرد ملوك روما الأول بدأ حكم النبلاء بقوة . فكان المجد هو هدف الرومان فى فترة حكم الجمهورية (٢) . فمن أجله كان لديهم حب الرغبة فى الحياة وكانوا لا يترددون فى الاقبال على الموت . ولكن بعد الحرية الآمنة التى انتشرت بطرد الملوك أخذوا يبحثون عن السلطة . ولقد كانت اللهفة للمدح والرغبة فى الشهرة عاملين هامين جعلتهم يقومون بأعمال مذهلة — وهى أمور تستحق بدون شك ، الشكر والمجد طبقاً لحكم الانسان .

---

(١) بعد أن ثبتت روما نظامها السياسى الداخلى أخذت تتوسع تدريجياً حتى أصبحت سيدة ايطاليا ثم بسطت سيادتها على حوض البحر المتوسط بأكمله .. وكانت أكبر عقبة فى طريق توسع روما الخارجى هى قوة قرطاجة فى شمال افريقية حتى انتهى التنافس بين القوتين بقيام حروب طويلة تعرف بالحروب البونية . وهى الحروب التى مرت بأدوار عديدة انتهت بهزيمة قرطاجة فى موقعة زاما عام ٢٠٢ ق . م ثم تدميرها عام ١٤٦ . وبانتصار روما على قرطاجة أصبحت أعظم قوة فى البحر المتوسط ، مما مكنها من قيام الامبراطورية الرومانية الكبرى انظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٦ — ١٧ (المترجم) .

(٢) بدأت روما تاريخها بالنظام الملكى عام ٧٥٣ ق . م واستمر هذا النظام مطبقاً بها حتى عام ٥١٠ ق . م عندما طرد منها آخر ملوكها تركوينيوس سوبر بومن . مالبثت ان حل النظام الجمهورى محل النظام الملكى فى روما واستمر بها من ٥٠٩ ق . م حتى عام ٢٧ ق . م وهى الفترة التى وطدت فيها روما مركزها فى ايطاليا ثم فى البحر المتوسط وهى العهد الذى اكتسبت فيه روما عن طريق النصر والهزيمة تجاربها السياسية والادارية . واقتبست من حضارات الشعوب الأخرى . واعتباراً من عام ٢٧ ق . م تبدأ الفترة الثالثة والأخيرة من تاريخ روما والمعروفة بعهد الامبراطورية . انظر : بارو : الرومان ، ترجمة د . عبد الرازق يسرى ، تعليق د . منير القلماوى ، مجموعة الألف كتاب ص ٢٠ — ٢١ . (المترجم) ..

ولكن هذه الانجازات كانت من قبل قلة من الرجال الصالحين وهؤلاء الرجال كانوا منحة من الله لروما لتحقيق هدفه في جعل الامبراطورية الرومانية أكبر من الامبراطورية الاشورية السابقة عنها . ومن خلال الرغبة في المجد عالج الرومان الكثير من أخطائهم فألخطأ يتواجد بمجرد الرغبة في المجد الذاتي ، وبالتالي لم يساعد هذا في خلق القداسة الرومانية ، وانما جعلهم أقل مجداً مما كانوا يرغبون . ولم يكن الهدف الحقيقي للفضيلة أن يلبسها الناس وانما تمجيد للرب الموجود في السماء . وكذلك كان الناس قد ابتعدوا من أجل فضيلتهم عن الانشغال في مصالحهم الخاصة حباً في الجمهورية وآخذوا يقاومون الطمع املا في ملء خزائن الدولة . كما دأبوا بوحي من الحرية على الأخذ برأى الآخرين فيما يفيد الصالح العام لبلادهم فكانت النهاية لصالحهم فجنوا ثمار كل هذا بأن تمكنوا من فرض قوانين امبراطوريتهم على شعوب عديدة .. وفي هذا اليوم يقول أوغسطين في كل من الأدب والتاريخ بأنهم كانوا ممجدين تقريباً أمام جميع الأمم .

وكان الحكم على الدولة الرومانية قد بنى فعلا ، بأنه لا توجد فضيلة حقيقية فيما عدا تلك التي تتجه نحو المصلحة العليا للانسان . وبذلك فقد ساعد الله الرومان طبقاً للحالة التي عليها المدينة الأرضية . فكانوا أناساً طيبين وكان الله يرى في مكافاتهم هدفاً أبعد وهو ان الرومان يجب أن يكونوا في مستواهم مثلا والهاماً للمسيحيين . فما هذا الذي لم يحتقره الرومان وماذا هو الذي لم يتحملوه ، وما هي تلك الشهوات التي لم يتغلبوا عليها من أجل مجد الانسان . وهل هؤلاء الذين يعرفون المعاني الحقيقية للفضيلة ويقومون على خدمة الرب الحقيقي وسوف يفعلون من أجل هدفهم أقل مما كان يفعله الرومان في الدولة الوثنية ؟ .. ان أوغسطين مستعد ليقبل ان الحروب الرومانية لا غبار عليها وان الرومان كانوا يقاتلون للدفاع عن النفس منذ أن كان جيرانهم أقل منهم في الفضيلة .

واني لأعرف صورة أخرى لاخطاء روما موجودة في الكتب الثلاثة

الأول من مجلد مدينة الله حيث يوضح فيها أوغسطين كيف انه ينبذ تلك الألعاب الفاسدة التي كانت تقام اثناء احتفالات تمجيد الاله الرومانية . ولكن يجب أن نتذكر ان ازالة تلك الأخطاء المتواجدة في تاريخ الحروب المتتابعة انما تكون جزء من الهجوم الصحيح لأوغسطين ضد البوثنين . ولكن يتضح لنا قليل ان هناك هجوماً غير متوازن على تلك الألعاب الوحشية لعله مستلهم من تلك الأحداث المعاصرة (لتلك الفترة) لأن كثيراً ممن تمكنوا من الهرب إلى افريقيا بعد استيلاء القوط على روما قد اندفعوا نحو الألعاب متناسين كل شيء آخر يذكرهم بهذه المناظر المؤذية . وقد أحس أوغسطين بالعار والاشمئزاز بسبب ذلك . تلك هي أخطاء النامن في أيامه والتي دفعته إلى مرارة كتبه الثلاثة الأول : وكلما تذكر تاريخ روما خلال حكم الجمهورية المبكر عندما لم يكن النظام الروماني قد تهدم بعد ، كان يكتب الحقيقة كأحد الأساقفة المسيحيين وأيضاً كروماني يدرك تلك التضحيات الكثيرة التي تمت من أجل بناء الامبراطورية الرومانية . فان روما مازالت ممثلة في المدينة الأرضية ، أهدافها دنيوية ولكن من خلال تلك التحديدات فقد أثبت الرومان انهم يستحقون أن تكون لهم امبراطورية .

فالمدينة الأرضية مثل المعادلة الجبرية . فكما قال بعض النقاد ان أوغسطين في مدينة الله لم يدن فقط الدولة الوثنية وانما أدان أيضاً كل دولة على هذا النمط . والان يجب أن نسلم من القراءة الأولى لمؤلف أوغسطين بأن هذه هي النهاية الطبيعية . وسيكون من الصعوبة بمكان أن نشك بأن هذا خطأ ويجب أن تتذكر دائماً ان الدولة الوثنية فقط هي الممثلة للمدينة الأرضية وان مدينة الله أكبر كثيراً منها بما تحويه من مجتمع الملائكة الغير مرئي ، والموتى والذين سوف يولدون . ويهاجم أوغسطين في مؤلفه مدينة الله ، الوثنيين فهو ينتقد للدولة الوثنية والعناصر الأساسية الوثنية الموجودة في الدولة المعاصرة له . فلم تدخل الدولة المسيحية مباشرة في هذه المناقشة وأحياناً جاءت معالجته للدولة في مؤلفه «مدينة الله» لصالح مكانها طالما ان سلوك

الدولة كان مختلفاً عن سلوك روما الوثنية . حقاً لعل ثمة تحريض فى أن يرفض أوغسطين ادخال فكرة العدالة فى تعريفه لهذه الدولة . لأنه عندما أشار إلى الدولة الوثنية كان واثقاً تماماً فى اختلافها مع مثاليته عن الدولة المسيحية حيثما يستمر العدل. كما أنه رأى عدم امتداد هذا إلى كل دولة لأن ما يقال عن المملكة المسيحية يعتبر امتيازاً خاصاً بها وكما رأينا إن الانسان فى نظر أوغسطين هو صنيعة الله كمخلوق اجتماعى . فالعائلة مرتبطة بروابط الحب وتبادل الخدمات فهى جمعية طبيعية . وهنا يكون قد اختفى تماماً حب السلطة والسيطرة اللتين اختصت بهما الامبراطوريات الأرضية . ونحن نرى علاوة على هذا فى تعريف أوغسطين للدولة والذى جاء به استبدالا عما اعطاه لنا شيشرون بأنه لابد وأن يكون مواطنوها متحدين بجمعهم الحب العام . ولو تم هذا واستبدل حب السيطرة أو التملك بحب خدمة الرب الحق فلن يكون هناك مجال للتساؤل عن سبب حكم أوغسطين لصالح سكان مثل هذه الدولة ، ومن وجهة نظره الشخصية التى تميل للنظر للدولة بأنها كيان مستقل للمواطنين المكونين لها وان سلوك هؤلاء المواطنين هى التى تحدد سلوك الدولة (١) .. وان حدث تغير فى سلوك المواطنين فلابد وأن يتغير سلوك الدولة . وفى نفس الوقت يكون هناك مجالا لتغير الحكم الصادر على الدولة . ويقول أوغسطين فى الفصل ١٧ من المجلد ١٩ لكتاب «مدينة الله» فى الوقت الذى كانت فيه المدينة الأرضية تعبد آلهة متعددة كانت المدينة السماوية تعرف ان الله واحد فقط وهو الذى يجب عبادته . وهكذا ليس من الممكن أن يكون للمدينتين قوانين دينية عامة . وكانت المدينة السماوية مجبرة فى هذا الصدد ان تتمرد وتصبح عدواً لهؤلاء الذين يفكرون بطريقة مخالفة ، وتستمر فى معركة بغضها وكرهها واضطهادها .

---

(١) ربما لى تتلاشى روما . وربما انها تستحق العقاب ولكن ليس التدمير ، ربما لن تتلاشى لو لم يبدها الرومان . وانهم لن يبدوها إذا حبوا الرب . وسوف يكونوا سبباً فى ابادتها إذا قلل من شأنه انظر :

Sérmo : 81, 9.

ولعل هذا التعارض كان موجهاً ضد السياسة الدينية للدولة الوثنية . فالمدينة الأرضية تطلب سلاماً أرضياً بينما تعوض المدينة السماوية هذا السلام الأرضى فى الجيج ناحية السلام السماوى . وقد سلم أوغسطين بأن هناك توافقاً بين المدنيين على أساس أن السلام الأرضى هو الهدف . وهذا التناسق فى الهدف الأدنى لايبعد امكانية الدولة انفى أن تتبنى الهدف الأعلى . ومن أجل اعلان أوغسطين تأييد الدولة المسيحية ، يجب أن نلقى نظرة على كتاباته الأخرى الموحاه من مناقشاته مع الدوناتيين (١) . فالأمبراطورية المسيحية جاءت نتيجة احدى النبوءات . وان الحكام الآن ، مطيعين لعبودية الله وسيدهم (٢) ووجد أوغسطين فى سفر دانيال ان الأخير قد تنبأ بالتغيير الكبير من الدولة الوثنية إلى الدولة المسيحية . ففى البداية أمر نبوخذ نصر (٣) ، المؤمنين ليعبدوا الاله الوثنى وهددهم بالرمى فى النار إذا رفضوا هذا . ثم أمر نفس الملك بعد فترة بأنه إذا لم يعبد أى من رعاياه الاله شادراش (Shadrach) ميشاش ، (Meshach) ابيدنيجو (Abedenego) سوف يقاسى كثيراً حتى الموت . (دانيال ، أصحاح ٣ ، أية ٢٩ — ٣٠) . فبالنسبة للأمر الأول يصور الفترة التى قاسى خلالها الرسل والشهداء بينما أوضح لنا الأمر فى مدى ما قاساه غير المؤمنين (٤) . فمن قبل كان الملوك قد تجمعوا ضد

---

(١) لم أضف أيا من الرسالة المدرجة فى البترولوجيا اللاتينية ج ٤٣ ، ٣٩١ — ٤٤٦ الموجهة إلى الكاثوليك ضد الدوناتيين من أجل وحدة الكنيسة . وذلك لعدم التأكد من حقيقة ماجاء عن بها . انظر ماكتبه OK. Adam عن مذكرات أوغسطين عن وحدة الكنيسة ج٤ من ٨٦—١١٥ عام ١٩٠٩ .

(٢) contra cresconium ٣ فقرة ٥١ . الرسالة ١٠٥ فقرة ٥ . القوى الحقية الممنوحة من الله إلى المسيح طبقاً للنبوة ، رسالة ٩٣ فقرة ٣ تقديم الشكر لله فانه الهم ملوك وهم خدام المسيح ، بالمعجزات النبوية للمسيح إلى سيأتى بها (انظر المزمور السابع السطر ١١) الرسالة ٨٧ فقرة ٧ ، رسالة ١٠٥ ، فقرة ٦ ، رسالة ١٨٥ فقرة ٢٠ ، مزمار ١٠١ . وعظ ٢ ، فقرة ٩ انظر : contra litt petiliant و ٢ ، فقرة ٢١١ .

(٣) هو احد ملوك بابل عاش فى القرن السابع ق . م (المترجم) .

(٤) رسالة ٩٣ فقرة ٩ رسالة ١٨٥ فقرة ١٩ ، رسالة ١٠٥ فقرة ٧ ، contra cresconium ٣ ، فقرة ٥٦ .

الله . وضد المسيح (١) والآن نراهم يعبدون الله خوفاً منه . فأوامرهم هى أوامر المسيح (٢) . وقبلهم فى يد الله (٣) . فانهم الأطفال المولودين فى الكنيسة الكاثوليكية حسب الانجيل (٤) . وقد زالت كثير من الممالك التى وضعت ثقتها فى الشياطين (٥) وهذا لا يمكن أن يقال عن أى سلطة دينية لم يكن السيف وسيلة للعقاب بالنسبة لرجال الدين . انما كان هناك عقاباً روحياً هو الحرمان (٦) . ولعل هذا يتضح من سياق الكلام (٧) . فالسيف هو سيف قيصر . وكان المسيح قد أمر اتباعه ان يعطوا قيصر ما لقيصر فالأمبراطور الآن يجب أن يكون أكثر الناس تقوى واخلاصاً (٨) . وأن يكون رحيما بالغير ومتمسكاً بالديانة المسيحية (٩) . وتتركز وظيفته فى خدمة المواطن العادى ليعيش حياة مخلصة وتوجيه نشاطه فى الحفاظ على عدالة القانون بصفته مانحه الأول ليزيد من قوة الصالحين والقضاء على الوثنيين

---

(١) مزامير ٢ سطر ١١ ، رسالة ٩٣ فقرة ١٨ ، رسالة ١٨٥ فقرة ١٩ .

(٢) رسالة ١٠٥ فقرة ١١ (تتضمن أوامر الاباطرة ما جاء به المسيح لأنه فقط صاحب لأنه فقط صاحب الأوامر الطيبة) انظر كذلك : Contra litt Petiliani ٢/ فقرة ١٣٢ .

(٣) رسالة ١٠٥ فقرة / ١٢ .

(٤) رسالة ٥١ ، فقرة ٣ .

(٥) كان هناك اعتقاد بأن سبب هذا الزوال هو تأديب الشياطين لهما . رسالة ١٠٥ فقرة ١٥

(٦) استخدمت الكنيسة المسيحية فى العصور الوسطى أنواع عديدة من العقوبات الرادعة ضد معارضيها . فمنها عقوبة الحرمان وتعنى الحرمان من الاشتراك فى قداس الكنيسة ومن جميع امتيازاتها . وهناك أيضاً عقوبة اللعنة وهمناها تخلى الشعب والجيش عن طاعة الامبراطور . أما عقوبة القطع فتعنى شل حركة الكنيسة إذ تغلق الكاثنين أبوابها وتوقف الصلوات على الموتى ويوقف تعميد الأطفال وعقود الزواج إلى آخره . لمزيد من التفصيلات انظر :

Encyc. of Religion and Ethics, IV. PP. 715 — 717. (المترجم)

(٧) ... Contra Dpist Patmeniani ، فقرة ١٦ (انظر الرسالة ٨٧ فقرة) . هنا كما فى مكان آخر . (انظر رسالة ١٠٠ فقرة ١ ، رسالة ١٢٤ فقرة ٣ . ويضيف أوغسطين رسالة القديس بطرس للرومان فصل ١٣ .

(٨) رسالة ٩٧ ، فقرة ٢ .

(٩) رسالة ٩٧ فقرة ٣ .

والضلال (١). وكانت الكنيسة حسب الكتاب المقدس ترشد الملوك وتبدى لهم النصائح/ كن – حكيما . وانتم يا ملوك تقبلوا المشورة وانتم ياحكام الأرض اعبدوا السيد بخوف وفرح وارتجاف (٢) .

وإذ حاول القارىء البحث فى كتاب «مدينة الله» عن أساس الملكية المسيحية فسيكون ذلك سدى . ولكننا نرى فى نهاية فصول الكتاب الخامس ان أوغسطين قد أوضح ان مكمن سعادة الأمراء المسيحيين تلك السعادة الموجودة فى عدالة حكمهم وفى التخلص من الكبرياء وان هدفهم يجب أن يكون «صانعاً لقوتهم ولحبهم فى اعلان العبودية الحقيقية لسيادة الله» . ويجب يجب الا يكون عملهم من أجل المجد الزائف ، وانما من أجل حب السعادة الأبدية .

وعن واجبات الخاضعين كتب أوغسطين فى خطابه الموجه إلى مارسلينوس (Marcellinus) «دع هؤلاء الذين يقولون ان عقيدة المسيح متناقضة مع رفاهية الدولة يعطو مثالا لاحد الجيوش على مذهب المسيح يحتاج إلى جنود ليبقى إذ اتركهم يعطونا أمثلة للخضوع مثل الأزواج والزوجات والآباء والابناء ، والسادة والعبيد ، مثل الملوك ومثل القضاه وكذلك مثل دافع الضرائب وجابيها بل وفضلا عن هذا اتركهم الا يترددوا فى الاعتراف بأن هذه العقيدة لو كانت مطاعة لكان فى هذا انقاذ للدولة» . ومع هذه المقارنة فقرة من الكتاب الثانى من مؤلف مدينة الله» لو ملوك الأرض وكل اتباعهم ولو كان أمراء وقضاء الأرض ، لو الشباب والعذارى والمسنين ، وكل الأعمار من كلاالجنسين لو كل هؤلاء خاطبوا الشعب والجنود ، لأصبح الجميع معاً متحدين فى الانصات ومراقبة وصايا الديانة المسيحية فيما يختص بسلوك العدل والفضيلة .

---

(١) رسالة ١٨٥ الفقرتين ١٩ ، ٢٠ ، Contra litt Petiliani ، ٢ فقرة ٢١٠ ، ٣ ، فقرة ٥٦ .

(٢) Contra litt Petiliani ، الفقرتين ٢١٠ ، ٢١١ (الدرس من بتوخد نصر) .

«وعند ذلك تزيد الجمهورية العالم فى الحياة الحاضرة بسعادتها وترتفع إلى أعلى لتحكم فى سعادة عبر حياة إبدية» .

وهكذا يكون أوغسطين قد بحث بثبات نفوذ وتأثير حكام الامبراطورية وقد أضاف فى كتاباته إلى حد أعضاء مجلس السناتو تصريحاً لشيشرون فى أنه ليس هناك حد ولا نهاية لجهود الرجال الصالحين من أجل خدمة بلادهم وقد جال فى ذهن أوغسطين فى هذا الخطاب مقالة كتبه الأولى فى مؤلف مدينة الله ؛ : فانها كانت عن الوثنية وفجور الالهة الوثنية التى كانت اعداء المجتمع . (١) .

أترك الناس ليهتدوا إلى عبادة الله الحق ، وعندئذ فانك سوف ترى بلادك مزدهرة وتصبح اجزاء من ذلك البلد الذى شهد ميلاد ايماننا .

وبأى عن يجب نفى التكبر والحب للسلطة والتملك لأنه يمثل الخطأ الكبير لامبراطورية روما الوثنية . وقام أوغسطين كذلك بتعليم كل ما هو مفضل لديه إلى عدد من الدول الصغيرة التى لا تعيش معاً فى سلام ، وذلك أفضل من اعطائها لامبراطورية واحدة كبيرة . ورأى أوغسطين ان القانون يجب أن يكون موضع موافقة ورضاء الخاضعين له . وعند ذلك تصبح الدولة الصغيرة أشبه ما تكون بعائلة بشرية كبيرة .

ولم يقدم أوغسطين نظرية الدولة المسيحية فى «مدينة الله» ، وفى نفس الوقت لم يعمل على ادانة الدولة عما عليه ، ولم يبعد احتمال قيام الدولة على الأساس المسيحي .

ومن المدينة الأرضية نعود إلى «مدينة الله» من الدولة إلى الكنيسة . والآن يكون من المفهوم أن أوغسطين قد أثبت شخصية الكنيسة فى «مدينة

---

(١) أصبح الانسان المؤمن فى هذا الوقت لا يستطيع أن يعيش فى الفساد الذى كان معاصراً للوثنية .

الله» ولكن في الأصل فان مدينة الله أفضل من الأخرى . وفى نفس الوقت أقل منها في بعض الأحيان . انه مذهب القديسين فالكنيسة جسد هؤلاء الذين هم فى الطريق إلى المدينة السماوية ، «وهى عضو وممثلة فى العالم الأبدى لمدينة الله» (داوسون) .

وكانت الكنيسة الكاثوليكية عالمية وليست كقاطعة من مقاطعات الامبراطورية . وعن طريق الكنيسة حلت نعمة الله على العالم كما يقول (Figgis) « الكنيسة المرئية تعتمد فى وجودها على التعميد ، والسر المقدس ، وتحكم بواسطة الاساقفة . فهى العائلة الحقيقية لله . فالمسيحية تعنى الانتماء إلى هذه العائلة» (١) . وإذا تساءلنا عن العلاقة بين الكنيسة المرئية والدولة الأرضية ، فيكون من المهم أن نتذكر تماماً ان المدينة الالهية ليست لها شأن مباشر مع هذه المشكلة . ومرة أخرى فى هذا الصدد يجب أن نعرف ان أوغسطين لم يضع مطلقاً نظرية كاملة عن هذه العلاقة . أما النظرية التى أظهرتها العصور الوسطى فربما يكون قد تم استنتاجها من كتابات أوغسطين وواجبنا أن نتحقق فيما كان يفكر فيه أوغسطين نفسه فى هذا الصدد .. ؟ فهناك اختلاف ووضوح فى بيئة على من الدول والكنيسة وأن هذا الوضوح لا يمكن أن نحافظ عليه تماماً ، لأن الدولة منذ حكم قسطنطين كانت قد طلبت من الكنيسة ان تساعدها فى تنظيماتها المدنية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بحماية وتربية اليتامى .

كما أنها فرضت على الكنيسة فض المنازعات المدنية فى محاكم دينية . وكذلك قامت بتعيين أساقفة كمدافعين عن المدن لتسيطر على ادارة موظفيها . فتلك مسئولية صعبة وشاقة . «فاننا لا نريد أن يكون هناك تعاملا مع القوى الموجودة .. ؟ وهذا ما قاله أوغسطين فى احدى المرات ضمن مواعظه عندما كان منهك القوى فى المهام التى كانت تبعده عن عمله الحقيقى . وقد أوضحت الكنيسة من جانبها ان الدولة يجب أن تعمل كل ما فى وسعها للوصول إلى

---

(١) «الكنيسة هى مركز الأمر الروحى السامى وأنها منه يدخل الفرد إلى عالم المادة . وهى الجسر الوحيد الذى يعبر منه الانسان من الدنيا إلى العالم الأبدى» (داوسون) .

العبادة الحقة لله .. وكان أوغسطين موافقاً ومؤيداً لفكرة أبعاد الدولة عن الطقوس الدينية المتعلقة بالوثنية ، وان من واجب الكنيسة ان تصمم على أن الدولة يجب عليها أن تدافع عن الايمان الحقيقي . وفي نفس الوقت طالما ان ايمان المسيحيين لم ينتهك فعلهم ، أن يطيعوا قوانين الدولة ، وأن يدفعوا الضرائب ، فيجب أن يعطوا قيصر ما لقيصر . وهنا كانت حرية الدولة غير محدودة وقد رأينا من قبل أن أوغسطين كان مستعداً للخضوع والطاعة للدولة بدون حد .. ولكن تأتي المسألة شديدة الصعوبة عند تحديد علاقة الكنيسة بالدولة في الرد على عما إذا كان من واجب الدولة اضطهاد المهرطقين وكذلك المنشقين عن الدين من عدمه ؟ .. وفي مناقشات أوغسطين المبكرة مع المانوية أجاب برد قاطع بالنفي : «ان الدولة لا تتمكن من اجبار رغبة الانسان الحر في مسائل الايمان» .. وكان هذا في بداية طريقة عند مناقشه الدوناتيين (١) . وان هذا لأمر هام جداً لمراقبة دراسة مفصلة عن كتاباته لأنه سيتضح من خلالها كيف أنه غير من آرائه تدريجياً .

وفي النهاية أوضح بأنه ليس في كثير من الأحيان ان يكون للدولة حق اضطهاد ـ الدوناتيين وانما كان من حق الكنيسة فقط في أن تطلب من الدولة هذه الخدمة . ـ وعندئذ كانت دعاوى أوغسطين في الدفاع عن استعمال القوة توحي بأنه كان يبحث في اقناع نفسه بتأييد مثل هذه الاضطهادات «اجبرهم ليدخلوا فيها» .. وكان هذا النص أمراً مهلكاً في تاريخ الكنيسة ولم يكن هذا بشيء سار للتفكير في أن أوغسطين هو الأب الروحي لهذه الاضطهادات .

وكان لكل من الدولة والكنيسة عند أوغسطين كيانها المستقل في العمل حقيقة ولكن من خلال رأيه .. الدنيوي الآخر في تاريخ البشرية ، يكون

---

(١) انظر الرسالة ٢٣ فقرة ٧ «وينبغي أن نفهم ان ما هو مذكور لم يكن دعوة لاجهاد الانسان على الايمان .»

للكنيسة حق الاسبقية فى الانتماء اليها . وان ما يعنيه أساساً فى هذه الصدد ان تكون الدولة خادمة للكنيسة فى المسائل الدينية .

وانى أكرر بأن أوغسطين لم يكن فى نظريته السياسية فيلسوفاً متعنتاً . فكان على استعداد لتغيير افكاره . وأن المرء لا يمكن أن تخرج من كتاباته بأى ثغرة فى افكاره سواء ما يتعلق منها بالدولة أوبالكنيسة . وقد كتب أوغسطين هذه الكتابات مع ما يتفق وطبيعة الوقت المعاصر له . وعندما استولى الازيك على روما ، وقع مغبة هذا العمل على المسيحيين وأوضح أوغسطين بأن هذا الهجوم ضد الدولة الوثنية . وقام الدوناتيون بالتحريض ضد التحالف الأخير الذى تم بين الكاثوليك والأباطرة الرومان . ويدافع أوغسطين عن هذا التحالف ويرى انه نظراً لأن الأباطرة يملكون ثروات الامبراطورية ، فى استطاعتهم خدمة الرب بطريقة لا يتمكن بها المواطنون العاديون خدمته . وهكذا فالقارىء الذى يبحث عن الرأى المتكامل لأى موضوع خاص عند أوغسطين ، يقابل صعوبات ويجد نفسه فى دائرة مفرغة . ويمكن استخراج كثير من الجمل الملفته للنظر فى ثنايا مناقشات أوغسطين . ولكن هناك فئة من الناس قد فهموا تلك الجمل بشكل آخر بعيد عن المعانى والنظريات التى قالها هو . ويقول أوغسطين ان الكنيسة الموجودة الآن هى مملكة الألف عام (١) . وقد نازع أوغسطين هؤلاء الذين اعلنوا تاريخ المجيء الثانى للمسيح فى المستقبل القريب . ولو كان هذا حتى لناقش المفكرون الآخرون فيما بعد . الرأس الأرضية (أى الملك) لهذه المملكة بأنه يجب أن يكون لها قوى ملكية . ومن ثم يمكن انتزاع الادعاءات حول بابوية العصور الوسطى . ولكن بابوية العصور الوسطى لم تكن فى

---

(١) ساد الاعتقاد خلال امد طويل بأن البشرية كانت تتوقع نهاية العالم فى سنة ١٠٠٠ ميلادية أو حواليها . وكان الناس وقتذاك يترقبون بشغف هذا الحدث . ولكن مضت السنون بعد سنة ١٠٠٠ ، ولم يبق شيء سوى التوقع العام بالعودة الثانية للمسيح وذلك حسب اعتقاد المسيحية انظر كولتون : المرجع السابق ص ١٧٣ . (المترجم) .

عهد أوغسطين . ولو كانت الدولة مبنية على أساس العدل فيجب أن تعترف بعبادة الله الحقيقى — ويمكن مناقشة أنه طالما كانت الكنيسة تحمى الايمان الحقيقى فلابد وأن تخضع الدولة لها . ولكن أوغسطين كان قد أعلن استقلال كل منهما عن الآخر . وأنه لمن الجهل جداً أن نجعل أوغسطين مسئولا عن الآراء التى أخرجها الآخرون من كتاباته .

ولكن فى النهاية إذا القينا نظرة على أفكار أوغسطين عن الدولة سوف نلاحظ فى هذا المجال انه من أجله يكون الانسان بالضرورة مخلوقاً اجتماعياً كما خلقه الله ، وان كل البشر جاء وامن زوج واحد آدام وحواء . وكل الناس من وراء هذه الحقيقة يكونوا مرتبطين برباط عام . ولم يكن أوغسطين يفضل جنس على آخر فالناس جاءوا من مصدر واحد وأب واحد فى السماء

ومرة أخرى فلأن أوغسطين كان خبيراً فى معرفة الأمور الصحيحة وعاجزاً عن تحقيقها فيمكن القول بأن الارادة هى السبب الأساسى فى حياة البشر . والكلمة الأخيرة لم تكن فى العقل وانما فى الاحساس — مع ماذا يحب الفرد . ولم تكن أشكال الحكومة مقبولة عند أوغسطين . فسلوك الدولة مرتبطة مع سلوك المواطنين المكونين للدولة . والمدينتان الكبيرتان كما يراهما أوغسطين متميزتان بحبين : «وهنا الحبان عما اللذان كونا المدينتين حب النفس إلى حد الامتهان بالله ، وحب الله إلى حد امتهان النفس . فالدولة هى اجتماع أشخاص عاقلين مرتبطين معاً اتفاق عام يتعلق بأهداف حبهم» . ولو انك تريد اتمام الموضوع ، فليس بكاف ان يعرف ان المعلومات يجب أن تكون مسلحة بالاحساس : وان تاريخ البشرية له معان لأنه يشكل جزءا من الخطة الكبرى التى كانت قد أوحيت قبل خلق الزمن (أى العالم) .. فالخلق والزمن بدأ معاً وسينتهيان عندما لا يكون هناك زمن . ولم يكن تاريخ البشرية — كما اعتقد الفلاسفة دائرة مكررة . فلتاريخ البشرية هدف ، هو الفكر الموجود فى مضمون كتاب «مدينة الله» .

ومن أجل هذا السبب فالدولة الوحيدة التى تكون أبدية هى المملكة التى يكون فيها المسيح الحاكم الأعلى . فلم تكن روما عند أوغسطين المدينة الخالدة. «فالأشياء التى فعلها الله الحاكم الأعلى نفسه سوف تزول وعلى رأسها زوال ما خلقه رومولوس (١) . وكان أوغسطين متيقناً عندما أدرك ما بعد سقوط روما — مركز ومصدر الحضارة فى عهده — لأنه كان هناك مدينة أكبر من أى دولة أرضية ، فقد بقيت مدينة الله . انه لنصر الايمان ، وانها كانت الثقة الكبرى التى مكنت الكنيسة لتكمل رسالتها للغزاة البرابرة ، ولروما ، عندما كانت الامبراطورية الرومانية الغربية قد أصبحت ذكرى طيبة ، فاقت ذكرى الوحدة المفقودة التى ترددت فى أحلام رجال أوروبا فى العصور الوسطى .

---

(١) المقصود رومولوس أوجستولوس (Romulus Augstulus..) آخر أباطرة روما الضعاف الذى قضى عليه اودواكر الجرمانى سنة ٤٧٦ م . (المترجم)

« بيان بالمراجع الأجنبية »

(والعربية التى اعتمد عليها المترجم فى مقدمته وتعليقاته)

(فى الهوامش السفلية)

أولا : المراجع الأجنبية :

Attwater, D , Saints, London, 1978.

Augustin, St., Confessions, translated from the original by R.S., Pinecoffin, London, 1976.

Barker, E., Principales of Social and political Theory, London, 1963.

Baynes, N., Constantine the Great and the Christian Church, London, 1929.

Bury, J. B.; History of the later Roman Empire, 2 Vols, New York, 1958.

Carlyle, R., Medieval political theory in thewest, 2 Vols, London, 1930.

Chadwich., H., The Early Church, New york, 1976.

Duchesne., L.; Histoire ancienne de l'Eglise, 3 Vols, Paris 1923.

Gibbon, E., The Decline and Fall of the Roman Empire, New york, 1979.

Hardwick, Ch., A History of the Christian church in the Middle Ages, Lonson, 1871.

Hoyet, R., & Chodorows. S., Europe in the Middle Ages, New york, 1976.

Jackson, F.J., History of the chirstian church, London, 1909.

La Monte, J., The World of the Middle Ages, New york, 1949.

Ludolph, Von Sochems, Description of the Holy land, CF. Palestine pilgrims Text Society, PP. 1 — 176, London, 1895.

Maurice, K., The Pelican History of Medieval Europe, New york, 1976.

Mondesert, C., Clement D'Alexandrie, Paris, 1944.
Painter, S., A History of the Middle Ages, New york; 1966.
Russel, B., History of Western philosophi, London, 1979.
Srephenson, C., Medieval History New york 1943.
Thompson, J., History of the Middle Ages n, London 1931.
Vasilieve, A.; Histoire de l'Empire Byzantine, 2 Vols, Paris, 1931.
Combridge Medieval History, t. I, V I., Cambridg, 1911 — 1936.
Encyclopaedia Britanica, t II, London 1968.
Encyclopaedia of Religion and Ethics, t. IV, New york, 1935.

(ثانياً) المراجع العربية والمعربة :

باراكلاف (جوفرى) :

الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ترجمة د . جوزيف نسيم يوسف — الاسكندرية ١٩٦٦ .

بارو (و . م) :

الرومان — ترجمة عبد الرازق يسرى ، مراجعة د : سهير القلماوى مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٨ .

حسن حنفى حسين (الدكتور) :

نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، القاهرة ١٩٦٩ .

سباين (جورج) :

تطور الفكر السياسى — ترجمة د . حسن جلال العرومى — ٥ ج ، القاهرة ١٩٦٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :

أوروبا العصور الوسطى ، ٢ ج القاهرة ١٩٧٧ .

عبد الرحمن بدوى :

فلسفة العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٢ .

على عبد المعطى (الدكتور) :

الفكر السياسى الغربى ، الاسكندرية ١٩٧٥ .

كاسيرر (أرنست)الدولة والأسطورة ، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، القاهرة ١٩٧٥ كولتون (جورج) :

عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة د . وجوزيف نسيم يوسف ، الاسكندرية ١٩٦٤ .

محمد محمد الشيخ (الدكتور)

الممالك الجرمانية فى أوروبا فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٧٥

نجيب ميخائيل (الدكتور)

مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٦ ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

يوسف كرم

تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط ، القاهرة ١٩٥٧ .